

الباب التاسع

بابل

الفضل الأول

من حمورابي إلى نبوخذ نصر

فضل بابل على المدينة الحديثة - أرض ما بين النهرين -
حمورابي - عاصمة مكة - سيطرة الكاشيين - رسائل
قل المارنة - فتح الأشوريين لبابل - نبوخذ نصر -
بابل في أيام مجدها

الحضارة كالحياة صراع دائم مع الموت ، وكما أن الحياة لا يتسنى لها أن تحتفظ بنفسها إلا إذا خرجت عن صورها البالية القديمة واتخذت لها صوراً أخرى فنية جديدة ، فكذلك الحضارة تستطيع البقاء مزعزعة الأركان بتغيير موطنها ودميها ، ولقد انتقلت الحضارة من أور إلى بابل ويهوذا ، ومن بابل إلى نينوى ، ومن هذه كلها إلى برسبوليس وسارديس وميليتس ومن هذه الثلاثة الأخيرة ومصر وكريت ، إلى بلاد اليونان ورومة .

وما من أحد ينظر الآن إلى موقع مدينة بابل القديمة ثم يخطر بباله أن هذه البطاح الموحشة ذات الحر اللافح الممتدة على نهر الفرات كانت من قبل موطن حضارة غنية قوية كادت تكون هي الخالقة لعلم الفلك ، وكان لها فضل كبير في تقدم الطب ، وأنشأت علم اللغة ، وأعدت أول كتب القانون الكبرى ، وعلمت اليونان مبادئ الحساب ، وعلم الطبيعة والفلسفة ، وأمدت اليهود بالأساطير القديمة التي أورثوها العالم . ونقلت إلى العرب بعض المعارف العلمية والمعمارية التي

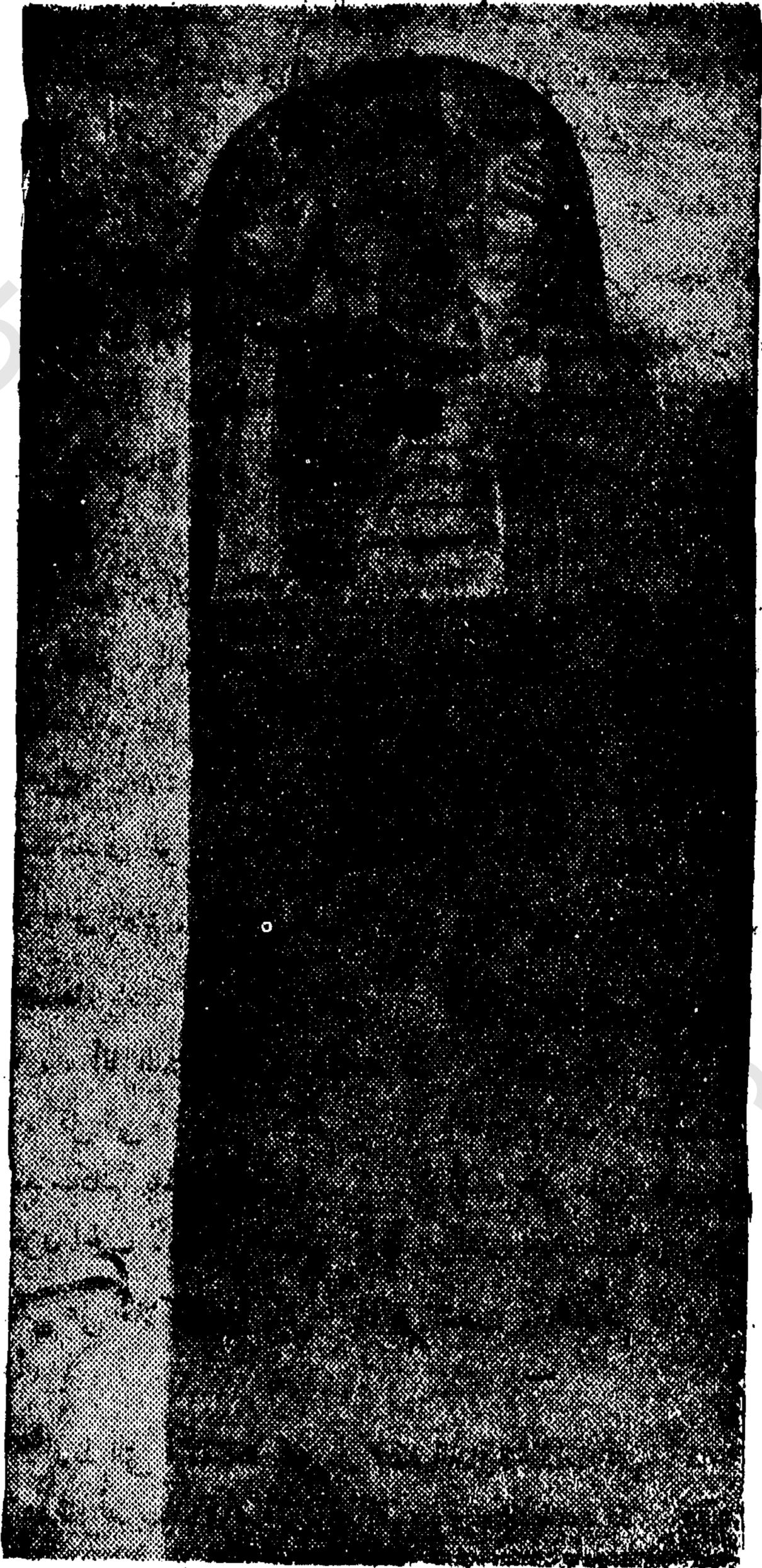
أيقظوا بها روح أوربا من سباتها في العصر الوسيط . وإذا ما وقف الإنسان أمام دجلة والفرات الساكنين فإنه يتعذر عليه أن يعتقد أنهما النهران اللذان أرويا سومر وأكد وغذا حدائق بابل المعلقة .

والحق أنهما إلى حد ما ليسا هما النهرين القديمين ، وذلك لأن النهرين القديمين قد اختطا لهما من زمن بعيد مجريين جديدين^(٢) ، « وقطعا بمناجلهما البيض شطآنًا أخرى » . وكان نهرا دجلة والفرات كما كان نهر النيل في مصر طريقاً تجارياً عظيماً يمتد آلاف الأميال ، وكانا في مجريهما الأدنى يفيضان كما يفيض نهر النيل في فصل الربيع ويساعدان الزراع على إخصاب الأرض ، ذلك أن المطر لا يسقط في بلاد بابل إلا في أشهر الشتاء ، أما فيما بين مايو ونوفمبر فإنه لا يسقط أبداً ، ولولا فيضان النهرين لكانت أرضهما جرداء كما كان الجزء الشمالي من أرض الجزيرة في الأيام القديمة وكما هو في هذه الأيام . ولكن بلاد بابل قد أضحت بفضل ماء النهرين الغزير ، وكذا الأهلين أجيالا طوالا ، جنة الساميين ، وحديقة بلاد آسية القديمة وهريها^(*) .

وكانت بابل من حيث تاريخها وبنس أهلها نتيجة امتزاج الأكديين والسومريين . فقد نشأ الجنس البابلي من تزواج هاتين السلالتين ، وكانت الغلبة في السلالة الجديدة للأصل السامي الأكدي ، فقد انتهت الحروب التي شبت بينهما بانتصار أكد وتأسيس مدينة بابل لتكون حاضرة أرض الجزيرة السفلى بأجمعها . وتطل علينا من بداية هذا التاريخ شخصية قوية هي شخصية حمورابي (٢١٢٣ - ٢٠٨١ ق . م) الفاتح المشرع الذي دام حكمه ثلاثاً وأربعين سنة . وتصوره الأختام والنقوش البدائية بعض التصوير ، فنستطيع في ضوءها أن نتخيله شاباً يفيض حماسة وعبقرية ، عاصفة هوجاء في الحرب ، يقلم أظافر الفتن ويقطع أوصال

(*) مما جاء في سفر التكوين أن الفرات واحد من أربعة أنهار تجري في الجنة

(تكوين : ١٤٢) .



شکل (۲۷) الإله شمس ينزل بالقوانين على جموداني

الأعداء ، ويسير في شعاب الجبال الوعرة ، ولا يخسر في حياته واقعة ؛ وحده
الدويلات المتحاربة المنتشرة في الوادي الأدنى ، ونشر لواء السلام على ربوعها
وأقام فيها منار الأمن والنظام بفضل كتاب قوانينه التاريخي العظيم .

وقد كُشف قانون حمورابي في أنقاض مدينة السوس في عام ١٩٠٢ .
ووجد هذا القانون منقوشاً نقشاً جميلاً على أسطوانة من حجر الديوريت
نقلت من بابل إلى عيلام (حوالي عام ١١٠٠ ق . م) فيما نقل من مغام
الحرب (*) ، وقيل عن هذه الشرائع إنها منزلة من السماء . فترى الملك على
أحد أوجه الاسطوانة يتلقى القوانين من شمس إله الشمس نفسه . وتقول
مقدمة القوانين :

ولما أن عهد أنو الأعلى ملك الأنوناكي وبيل رب السماء والأرض الذي
يقرر مصير العالم ، لما أن عهداً حكم بني الإنسان كلهم إلى مردوك ؛ . . .
ولما أن نطقاً باسم بابل الأعلى ، وأذاعا شهرتها في جميع أنحاء العالم ، وأقاما
في وسطه مملكة خالدة أبد الدهر تواعدها ثابتة ثبات السماء والأرض - في
ذلك الوقت ناداني أنو وبيل ، أناحمورابي الأمير الأعلى ، عابد الآلهة ، لكي
أنشر العدالة في العالم ، وأقضي على الأشرار والآثمين ؛ وأمنع الأقوياء أن
يظلموا الضعفاء . . . وأنشر النور في الأرض وأرعى مصالح الخلق .
أناحمورابي ، أنا الذي اخترته بل حاكماً ، والذي جاء بالخيز والوفرة ،
والذي أتم كل شيء لنهورودريلو ، . . . والذي وهب الحياة لمدينة أرك ؛
والذي أمد سكانها بالماء الكثير ، . . . والذي جعل مدينة بارسيا ؛ . . .
والذي خزن الحب لأوراش العظيم ؛ . . . والذي أعان شعبه في وقت المحنة ؛
وأمن الناس على أملاكهم في بابل ؛ حاكم الشعب ، الخادم الذي تسر أعماله
أنونيت (*) .

إن الألفاظ التي أكدناها نحن في هذه العبارة لذات نعمة حديثة ؛ وإن
المرء ليردد قبل أن يصدق أن قائلها حاكم شرقي « مستبد » غاش في عام ٢١٠٠

(*) وهي الآن في متحف اللوفر .

ق . م ، أو أن يتوهم أن القوانين التي تمهد لها استمدت أصولها من قوانين سومرية مضي عليها الآن ستة آلاف عام ، وهذا الأصل القديم مضافاً إلى الظروف التي كانت تسود بابل وقتئذ هو الذي جعل قانون حمورابي شريعة مركبة غير متجانسة . فهي تفتح بتحية الآلهة ، ولكنها لا تحفل بها بعدئذ في ذلك التشريع الدستوري البعيد كل البعد عن الصبغة الدينية . وهي تمزج أرقى القوانين وأعظمها استنارة بأقصى العقوبات وأشدّها وحشية ، وتضع قانون النفس بالنفس والتحكيم الإلهي (*) إلى جانب الإجراءات القضائية المحكمة والعمل الجصيف على الحد من استبداد الأزواج بزوجاتهم . على أن هذه القوانين البالغة عدتها ٢٨٥ قانوناً ، والتي رتب ترثياً يكاد يكون هو الترتيب العلمي الحديث ، فقسمت إلى قوانين خاصة بالأموال المنقولة ، وبالأموال العقارية ، وبالتجارة ، والصناعة ، وبالأسرة ، وبالأضرار الجسمية ، وبالعامل ؛ نقول إن هذه القوانين تكون في مجموعها شريعة أكثر رقياً وأكثر تمدناً من شريعة آشور التي وضعت بعد أكثر من ألف عام من ذلك الوقت ، وهي من وجوه عدة « لا تقل رقياً عن شريعة آية دولة أوربية حديثة (٥) » ؛ وقل أن يجد الإنسان في تاريخ الشرائع كله ألفاظاً أرق وأجمل من الألفاظ التي يختتم بها البابلي العظيم شريعته .

« إن الشرائع العادلة التي رفع منارها الملك الحكيم حمورابي والتي أقام بها في الأرض دعائم ثابتة وحكومة طاهرة صالحة . . أنا الحاكم الحفيظ الأمين عليها ، في قلبي حملت أهل أرض سومر وأكد . . . وبحكمتي قيدتهم ، حتى لا يظلم الأقيياء الضعفاء ، وحتى ينال العدالة اليتيم والأرملة . . . فليات أي إنسان مظلوم له قضية أمام صورتى أنا ملك العدالة ، وليقرأ النقش الذي على أثرى ، وليلق

(*) قانون النفس بالنفس معروف ، وقد ورد مفصلاً في التوراة ، وأشارت إليه الآية القرآنية الكريمة : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس الخ » أما التحكيم الإلهي فقد كان من العادات الشائعة عند بعض الأمم وهو لإثبات الجريمة على المتهم أو نفيها عنه بإلقائه في الماء أو في النار لينجو منهما إن كان بريئاً فإن لم ينجح فهو مذنب . (المترجم)

باله إلى كلباتي الخطيرة ! ولعل أترى هذا يكون نادياً له في قضيته ، ولعله يفهم منه حالته ! ولعله يريح قلبه (فينادى) : « حقاً أن حمورابي حاكم كالوالد الحق لشعبه ... لقد جاء بالرشاء إلى شعبه مدى الدهر كله ، وأقام في الأرض حكومة طاهرة صالحة (*) ... »

ولعل الملك الذي يكون في الأرض فيما بعد وفي المستقبل يرعى ألفاظ للعدالة التي نقشها على أترى (٨) ! .

ولم يكن هذا التشريع الجامع إلا عملاً واحداً من أعمال حمورابي الكثيرة . فلقد أمر بحفر قناة كبيرة بين كاش والخليج الفارسي أروت مساحات واسعة من الأراضي ، ووقت المدن الجنوبية ما كان ينتابها بسبب فيضانات نهر دجلة المخربة . ولقد وصل إلينا من عهده نقش آخر يفخر فيه بأنه أجرى في البلاد الماء (تلك المادة القيمة التي لا نقدرها اليوم والتي كانت في الأيام الماضية إحدى مواد التف) ، ونشر الأمن والحكم الصالح بين كثير من القبائل . وأنا لنستمع من ثانياً لهذا النقش ومن بين عبارات الفخر (وهو نحلة شريفة من خلال الشرقيين) صوت الحاكم الماهر والسياسي القدير .

« لما وهب لي أنو ونليل (إلها أرك ونهور) بلاد سومر وأكد لأحكامها ، ووضعها في يدي هذا الصولجان ، حفرت قناة حمورابي - نخوش - نيشي (حمورابي المفيض - على - الشعب) التي تحمل الماء الغزير لأرض سومر وأكد . وحولت شاطئها الممتدين على كلا الجانبين إلى أراضي زراعية ؛ وجمعت أكداساً من الحب ، وسيرت الماء الذي لا ينضب إلى الأرضين . . . وجمعت الأهلين المشتتين ، وهيات لهم المرعى والماء ، وأمددتهم بالمراعى الوفيرة وأسكنتهم مساكن آمنة (٩) . »

(٥) يبدو أن « شرائع موسى » تستمد من هذه الشرائع أو تستمد هذه وتلك من مصدر مشترك . وترجع عادة بصم العقد القانوني بخاتم رسمي إلى زمن حمورابي (٧) .

وبلغ من حذق حورابى أن خاع على سلطانه خلعة من رضاء الآلهة بالرغم من أن قوانينه كانت تمتاز بصيغتها الدنيوية غير الدينية . من ذلك أنه شاد المعابد كما شاد القلاع ، واسترضى الكهنة بأن أقام لمزدوك وزوجته (إلهى البلد القوميين) فى مدينة بابل هيكلًا ضخماً ومخزناً واسعاً ليخزن فيه القمح للإلهين وللكهنة . وكانت هاتان الهديتان وأمثالهما فى واقع الأمر بمثابة مال يستثمر أربح استثمار ، جنى منه ربحاً وفيراً هو الطاعة الممزجة بالرهبة التى يقدمها إليه الشعب . واستخدم ما حصل عليه من الضرائب فى تدعيم سلطان القانون والنظام ، واستخدم ما تبقى بعد ذلك فى تجميل عاصمة مملكته ، فأنشئت القصور والهياكل فى جميع نواحيها ، وأقيم جسر على نهر الفرات حتى تمتد المدينة على كلتا ضفتيه ، وأخذت السفن التى لا يقل بحارتها عن تسعين رجلاً تمخر عباب النهر صاعدة فيه ونازلة ، وأضحى بابل قبل ميلاد المسيح بألفى عام من أغنى البلاد التى شهدتها تاريخ العالم قديمه وحديثه (*).

وكان البابليون ساميين فى مظهرهم سود الشعر سمر البشرة ، رجالهم ملتحمون ، ويضعون على رؤوسهم أحياناً شعراً مستعاراً ، وكانوا رجالاً ونساء على السواء يطيلون شعور رؤوسهم ، وحتى الرجال كانوا أحياناً يرسلون شعرهم فى ضفائر تنوس على أكتافهم ، وكثيراً ما كان رجالهم ونسائهم يتعطرون . وكان لباس الجنسين المألوف مزرراً من نسيج الكتان الأبيض يغطى الجسم حتى القدمين ، ويترك إحدى كتفى المرأة عارية ، ويزيد عليه الرجال دثاراً وعباءة . ولما زادت ثروة السكان تذوقوا حب الألوان ،

(*) « لقد وصلت بابل من حيث المقومات الأساسية للحضارة فى عصر حورابى بل فيما قبله إلى درجة من الحضارة المادية لم يصل إليها غيرها من مدن آسية إلى وقتنا هذا » . من كتاب كرسنر دوسن « بحوث فى الدين والحضارة » *Enquiries into Religion and Culture* المطبوع فى نيويورك سنة ١٩٣٣ ص ١٠٧ . ولعل من الصواب أن نستقى من هذا التعميم عصر خشيار شاي (اكزركس) الأول فى فارس ، ومنع هوانج فى الصين ، وأكبر فى الهند .

فصبغوا أثوابهم باللون الأزرق فوق الأحمر . أو بالأحمر فوق الأزرق ، في صورة خطوط أو دوائر أو مربعات أو نقط . ولم يكونوا كاسومريين حفاة الأقدام بل اتخذوا لهم أخفافاً ذات أشكال جسنة ، وكان الذكور في عصر حمورابي يتمتعون ، وكان النساء يتزين بالقلائد والأساور والتماثيم ، ويحلقن شعرهن المصفف بعقود من الخرز . وكان الرجال يمسكون في أيديهم عصياً ذوات رؤوس منحوتة منقوشة ، ويحملون في مناطقهم الأختام الجميلة الشكل التي كانوا يصممون بها رسائلهم ووثائقهم ؛ وكان كهنتهم يلبسون فوق رؤوسهم قلانس طويلة مخروطية الشكل ليخفوا بها صفتهم الآدمية (١٠) .

وزادت الثروة فأنتجت في بابل ما تنتجه في سائر بلاد العالم . ذلك أن من السنن التاريخية التي تكاد تنطبق على جميع العصور أن الثراء الذي يخلق المدنية هو نفسه ينذر بانحلالها وسقوطها ؛ فالثراء يبعث الفن كما يبعث الحمول ؛ وهو يرفق أجسام الناس وطباعهم ، ويمهد لهم طريق الدعة والنعيم والترف ، ويغري أصحاب السواعد القوية والبطون الجائعة بغزو البلاد . ذات الثراء (*) . وكان على الحدود الشرقية لهذه الدولة الجديدة قبيلة قوية من أهل الجبال هي قبيلة الكاشيين تحسد البابليين على ما أوتوا من ثروة ونعيم . فلم يمض على موت حمورابي إلا ثمان سنين حتى اجتاحت رجالها دولته ، وعاثوا في أرضها فساداً يسلبون وينهبون ، ثم ارتدوا عنها ، ثم شنوا عليها الغارة تلو الغارة ؛ واستقروا آخر الأمر فيها فاتحين حاكمين ، وهذه هي الطريقة التي تنشأ بها عادة طبقة السراة في البلاد . ولم يكن هؤلاء الفاتحون من نسل الساميين ، ولعلمهم كانوا من نسل جماعة المهاجرين الأوربيين جاءوا إلى موطنهم الأول في العصر الحجري الحديث . ولم تكن غلبتهم على أهل بابل الساميين إلا بحركة أخرى من حركات الهجوم والارتداد التي طالما حدثت في غربي آسية . وظلت بلاد بابل بعد هذا الغزو عدة قرون

(*) وازن بين هذا وبين ما جاء في مقدمة ابن خلدون في هذا المعنى . (المترجم)

مسرّحاً للاضطراب العنصرى والفوضى السياسية اللذين وقفنا في سبيل كل تقدم في العلوم والفنون (١١) . ولدينا صورة واضحة من هذا الاضطراب الخائق في رسائل تل العمارنة التى يستغيث فيها أقبال بابل وسوريا بمصر التى كانوا يؤدون إليها خراجاً متواضعاً بعد انتصارات تحتمس الثالث ، ويتوسلون إليها أن تمد إليهم يدها لتعينهم على الثوار والغزاة . وفيها أيضاً يتجادلون في قيمة ما يتبادلونه من الهدايا مع أمنحوتب الثالث الذى يترفع عليهم ، ومع إخناتون الذى أهملهم وانهمك في غير شئون الحكم (*).

وأخرج الكاشيون من أرض بابل بعد أن حكموها ما يقرب من ستة قرون اضطربت فيها أحوال البلاد ، وتمزقت كما اضطربت أحوال مصر وتمزقت في عهد الهكسوس . ودام الاضطراب بعد خروجهم أربعين عاماً أخرى حكم بابل فى أثنائها حكام خاملون ليس فى أسمائهم الطويلة اسم واحد جدير بالذكر (**). ودام عهدهم حتى قامت دولة آشور فى الشمال فبسطت سيادتها على بابل وأخضعها للملك نينوى . ولما ثارت بابل على هذا الحكم دمرها سنحريب تدميراً لم يكدها بقى منها على شىء . ولكن عسر هدون ، المستبد للرحيم أعاد إليها رخاءها وثقافتها . ولما قامت دولة الميديين (+) وضعف الآشوريون استعان نبوپولصر بالدولة الناشئة على تحرير

(*) رسائل تل العمارنة رسائل مملّة فى صيغتها ملئت كلها ملقاً ودهاناً ، وجدلاً ، وتوسلاً وشكاية . استمع مثلاً إلى ما كتبه بربور ياش الثانى ملك كرديناى (فى الجزيرة) إلى أمنحوتب الثالث فى موضوع تبادل بعض الهدايا الملكية التى غبن فيها بربور ياش فيما يظهر منذ اليوم الذى توطلت فيه أواصر الصداقة بين أمى وأبيك ، تبادل الاثنان الهدايا القيمة ، ولم ياب أحدهما على الآخر أحسن ما يرغب فيه . أما الآن فإن أخى (أمنحوتب) قد أهدانى (فقط) منحين من الذهب . إن عليك أن ترسل لى من الذهب بقدر ما أرسله أبوك ؛ فإن كان لا بد أن يقل عنه ، فليكن نصف ما كان يرسله . لم ترسل لى إلا منحين من الذهب ؟ (١٢) (المنح قدر من المذهب) .

(**) مردك - شبيك - زيرى ، نتورا - تدين - سام ، أنليل - تدين - أبل ، مردك - شبيك - زرماتى ، الخ ، وما من شك فى أن أسماءنا الكاملة إذا وصلت كما وصلت هذه الأسماء تبدو مثلها متناثرة النغات فى آذاننا .

(+) تكتب أحياناً الماديين وهكذا وردت فى التوراة . (المترجم)

بابل من حكم الأشوريين ، وأقام فيها أسرة حاكمة مستقلة . ولما مات خلفته
في حكم الدولة البابلية الثانية ابنه نبوخذ نصر الثاني الذي يسميه كتاب
دانيال (١٣) بالرجل الوغد حقداً عليه وانبثاقاً منه . وفي وسع المرء أن
يستشف من خطبة نبوخذ نصر الافتتاحية لمردك كبير آلهة بابل مرأى
الملك الشرقي وأخلاقه :

« إني أحب طلعتك السامية كما أحب حياتي الثمينة ! إني لم أختبر لنفسي
بيتاً في المواطن كلها الواقعة خارج مدينة بابل . . . ليت البيت الذي شلته
يدوم إلى الأبد أيها الإله الرحيم . ولعلي أشبع بهائه وجلاله ، وأبلغ فيه
الشيخوخة ، ويكثر ولدي ، وتأتي إلىّ فيه الجزية من ملوك الأرض كلها
ومن بني الإنسان أجمعين » (١٤) .

وعاش هذا الملك حتى كاد يبلغ السن التي يطمع فيها ، وكان أقوى
ملوك الشرق الأدنى في زمانه وأعظم المحاربين والبنائين والحكام السياسيين
من ملوك بابل كلهم لا تستثنى منهم إلا حورابي نفسه ، هذا مع أنه كان أمياً ،
ومع أن عقله لم يكن يخلو من خبال . ولما تأمرت مصر مع آشور لكي تخضع
الثانية بابل إلى حكمها مرة أخرى ، التقى نبوخذ نصر بالجيوش المصرية عند
قرقيش (على نهر الفرات الأعلى) وكاد يبيدها عن آخرها . وسرعان ما وقعت
فلسطين وسوريا في قبضته ، وسيطر التجار البابليون على جميع مسالك التجارة
التي كانت تعبر غربى آسية من الخليج الفارسي إلى البحر المتوسط .

وأنفق نبوخذ نصر ما كان يفرضه على هذه التجارة من مكوس وما كان
يجب عليه من خراج البلاد الخاضعة لحكمه ، وما كان يدخل خزائنه من الضرائب
المفروضة على شعبه - أنفق هذا كله في تجميل عاصمته وفي تخفيف نهم الكهنة :
« أليست هذه بابل العظيمة التي بنيتها ؟ » (١٥) وقاوم ما كان عساه أن تنزع إليه
نفسه من أن يكون فاتحاً عظيماً فحسب . نعم إنه كان يخرج بين الفينة والفينة ليلقى
على رعاياه درساً في فضائل الطاعة والخضوع ، ولكنه كان يصرف جلّ وقته في

قصبة ملكه حتى جعل بابل عاصمة الشرق الأدنى كله بلا منازع ، وأكبر عواصم العالم القديم وأعظمها أهبة وفخامة (١٦) . وكان نبوپولصر قد وضع الخطط لإعادة بناء المدينة ، فلما جاء نبوخذ نصر صرف سنى حكمه الطويل التي بلغت ثلاثاً وأربعين فى إتمام ما شرع فيه سلفه . وقد وصف هيرودوت بابل ، وكان قد زارها بعد قرن ونصف من ذلك الوقت ، بأنها «مقامة فى سهل فسيح يحيط بها سور طوله ستة وخمسون ميلاً» (١٧) ويبلغ عرضه حداً تستطيع معه عربة تجرها أربعة جياد أن تجرى فى أعلاه ، ويضم مساحة تقرب من مائتى ميل مربع» (*)(١٨) . وكان يجرى فى وسط المدينة نهر الفرات يحف بشاطئيه النخيل وتنتقل فيه المتاجر رائحة غاذية بلا انقطاع ، ويصل شطريها جسر جميل (**)(١٩) . وكانت المباني الكبيرة كلها تقريباً من الآجر ، وذلك لندرة الحجر فى أرض الجزيرة ، ولكن هذا الآجر كان يغطى فى كثير من الأحيان بالقرميد المنقوش البراق ذى اللون الأزرق أو الأصفر أو الأبيض المزين بصور الحيوان وغيره من الصور البارزة المصقولة اللامعة ، ولا تزال تلك الصور حتى هذه الأيام من أحسن ما أخرجته الصناعة من نوعها . وكل آجرة من الآجر الذى استخرج من موقع بابل القديم تحمل هذا النقش الذى يتباهى به الملك الفخور : «أنا نبوخذ نصر ملك بابل» (٢١) .

وكان أول ما يشاهده القادم إلى المدينة - صرح شامخ كالجبل يعلوه برج عظيم مدرج من سبع طبقات ، جدرانها من القرميد المنقوش البراق ، يبلغ ارتفاعه ٦٥٠ قدماً ، فوقه ضريح يحتوى على مائدة كبيرة من الذهب المصمت

(•) وأكبر الظن أن هذه المساحة لم تكن تشمل مباني بابل نفسها فحسب ، بل كانت تشمل أيضاً فى داخل هذا السور مساحة أخرى خلفها من الأراضي الزراعية يراد بها أن تمد العاصمة الكثيرة السكان بما يلزمها من الزاد فى أيام الحصار .

(••) وإذا كان لنا أن نصدق ما قاله ديودور الصقل فإن نفقا عرضه خمس عشر قدماً

وارتفاعه اثنتا عشرة كان يمتد بين الشاطئين (٢٠) .

وعلى سرير مزخرف تنام عليه كل ليلة إحدى النساء في انتظار مشيئة الله (٢٢) .
وأكبر الظن أن هذا الصرح الشامخ الذي كان أعلى من أهرام مصر ، وأعلى
من جميع مباني العالم في كل العصور إلا أحدثها عهداً ، هو « برج بابل » الذي
وود ذكره في القصص العبري ، والذي أراد به أهل الأرض ممن لا يعرفون
تهوه أن يظهروا به كبرياءهم ، فببل رب الحيوش ألسنتهم (*) . وكان في
أسفل الصرح هيكل عظيم لمردك رب بابل وحاميا . ومن أسفل هذا المعبد
تمتد المدينة نفسها من حوله يحترقها عدد قليل من الطرق الواسعة النيرة ،
وكثير من القنوات والشوارع الضيقة الملتوية التي كانت بلا ريب تعج بالأسواق
والحركة التجارية وبالغادين والرائحين . وكان يمتد بين الهياكل القائمة في
المدينة طريق واسع مرصوف بالآجر المغطى بالأسفلت يعلوه بلاط من حجر
البحير ، ومجمعات من الحجارة الحمراء تستطيع الآلهة أن تسير فيه دون أن
تتلوث أقدامها . وكان على جانبي هذا الطريق الواسع جدران من القرميد
الملون تبرز منها تماثيل لمائة وعشرين أسداً مطلية بالألوان الزاهية تزجر
ترب الكفرة فلا يقتربون من هذا المطريق . وكان في أحد طرفيه مدخل
فخم هو باب إستير ، ذو فتحتين من القرميد الزاهي المتألق ، تزينه نقوش
تمثل أزهاراً وحيوانات جميلة الشكل زاهية اللون ، يخيل إلى الناظر أنها تسرى
فيها الحياة (**).

وكان على بعد ستمائة ياردة من برج بابل وإلى شماله ربوة تسمى القصر ،
شاد عليها نبوخذ نصر أروع بيت من بيوته . ويقوم في وسط هذا البناء مسكنه
الرئيسي ذو الجدران الجميلة المشيدة من الآجر الأصفر ، والأرض المفروشة
بالخسان الأبيض والمبرقش ، تزين سطوحها نقوش بارزة واضحة زرقاء

(*) ليس لفظ بابل مشتقاً من الببلية أو الاضطراب كما تقول بعض الأساطير بل معناه
كما في « بابلون » باب الإله (٢٣) .

(**) في متحف الفن الآسيوي في برلين نموذج لباب إستير بحجبه الطبيعي .

اللون ، مصقولة برّاقة ، وتحرس مدخله آساد ضخمة من حجر البازلت ، وكان بالقرب من هذه الرهوة حدائق بابل المعلقة الذائعة الصيت التي كان يعدّها اليونان لإحدى عجائب العالم السبع ، مقامة على أساطين مستديرة متتالية كل طبقة منها فوق طبقة ، وكان سبب إنشائها أن نبوخذ نصر تزوج بابنة سيانخار (سيكسارس) ملك الميديين ، ولم تكن هذه الأميرة قد اعتادت شمس بابل الحارة وثرها ، فعاودها الحنين إلى خضرة بلادها الجبلية ودفعت الشهامة والروعة نبوخذ نصر فأنشأ لها هذه الحدائق العجيبة ، وغطى سطحها الأعلى بطبقة من الغرين الخصب يبلغ سمكها بخمسة أقدام ، لا تتسع للأزهار والنباتات المختلفة ولا تسمح بتغذيتها ، وكانت المياه ترح من نهر الفرات إلى أعلى طبقة في الحديقة بآلات مائية مخبأة في الأساطين تتناوب إدارتها طوائف من الرقيق (٢٤) ، وفوق هذا السطح الأعلى الذي يرتفع عن الأرض خمساً وسبعين قدماً كان نساء القصر يمشين غير محجبات آمانات من أعين السوق ، تحيط بهن النباتات الغريبة والأزهار العطرة ، ومن تحتهن في السهول وفي الشوارع كان السوق من رجال ونساء يحرثون وينسجون ، ويبنون ، ويحملون الأثقال ، ويلدون أبناء وبنات يخلفونهم في عملهم بعد موتهم .

الفصل الثاني

الكادحون

الصيد - الجرث - الطعام - الصناعة - النقل -
أخطار التجارة - المرابون - الرقيق

كان بعض أجزاء البلاد لا يزال على حاله البرية الموحشة الخطرة ؛ فكاكت الأفاعى تهيم فى العشب الكثيف ، وكان ملوك بابل وأشور يلهون بصيد الآساد تجول فى الغابات والى تقف هادئة للمصورين ، ولاكنها تفر إذا اقترب منها الصائدون : حقا أن المدنية ليست إلا فترة عارضة موقوتة تتخلل وحشية الغابات .

وكانت أكثر الأراضى الزراعية يفلحها المستأجرون أو الرقيق وأقلها يحرثها ملاكها الفلاحون (٢٥) . وكانت كلها فى العهد الأولى تفتتها معازق من الحجر كما كان يفعل المزارعون فى العصر الحجري الحديث . وأقدم صورة لدينا تمثل المحراث فى بابل هى الصورة المنقوشة على خاتم يرجع عهده إلى حوالى عام ١٤٠٠ ق م ؛ ولعل هذه الآلة الكريمة النافعة كان وراءها فى ذلك الوقت تاريخ طويل فى أرض النهرين ، ومع هذا فلإنها كانت من طراز حديث إلى حد ما ، فقد كانت تجرها الثيران كما كان يفعل آباؤنا ، ولكنها كانت كمحراث السومريين ذات أنبوبة متصلة بها يخرج منها الحب إلى الأرض كمحاريت أبنائنا (٢٦) . ولم يكن أهل بابل يتركون الماء يفيض على الأرض كما كان يتركه أهل مصر ، بل كانت كل مزرعة تحميها من الفيضان جسور من التراب لا يزال باقيا إلى اليوم . وكان الماء الزائد على حاجة الأرض ينصرف إلى شبكة من المصارف أو يخزن فى خزانات لها فتحات يخرج منها إلى الحقول وقت الحاجة أو يرفع فوق الحواجز بشواديف . وقد امتاز حكم نبونخذ نصر بجفر عدد كبير من

قنوات الري وبتخزين الزائد من الماء في خزان كبير يبلغ محيطه مائة وأربعين ميلاً ، تخرج منه قنوات تروى مساحات واسعة من الأرض (٢٧) . ولا تزال بقايا هذه القنوات في أرض الجزيرة إلى اليوم . وكأنما أرادت الأقدار أن تربط الأحياء والأموات برباط آخر ، فأبقت إلى الآن على الشادوف البدائي في وادي نهري الفرات واللوار (٢٨) .

وكانت الأرض التي تروى على هذا النحو تئبت أنواعاً مختلفة من الحبوب والبقول ، كما كانت بها بساتين واسعة تنتج الفاكهة والنقل ، ولكن أكثر ما كانت تنتجه البلح . وكان البابليون يستثمرون ما أنعمت عليهم به الطبيعة من شمس ساطعة وأرض خصبة في صنع الخبز وجمع العسل وعمل الكعك وغيره من أطيب الطعام . وكانوا يصنعون من مزيج العسل والدقيق كثيراً من أشهى الأطعمة . وكانوا يلقحون النخل بحمل الطلع من ذكورها إلى إناثها (٢٩) . وانتقل الكرم والزيتون من أرض الجزيرة إلى بلاد اليونان والرومان ، ثم انتقل منهما إلى غربي أوربا . أما الخوخ فقد انتقل إلى أوربا من بلاد الفرس القريبة من أرض الجزيرة ، وجاء لوكلس بشجر الكرز من شواطئ البحر الأسود إلى رومة ، وأصبح اللبن ، وهو الذي كان نادراً في بلاد الشرق ، من الأطعمة الرئيسية في بلاد الشرق الأدنى . وكان اللحم قليلاً غالي الثمن ، ولكن السمك كان يصاد من المجارى المائية العظيمة ، ويصل إلى بطون أفقر الطبقات . فإذا أقبل المساء ونحشى الفلاح أن يقلق باله التفكير في الحياة والموت ، عمد إلى تهديئة هذه الأفكار بالنبيذ المعصور من البلح أو بالجة المتخذة من الحب .

وكان غير الفلاحين من الأهلين يحفرون الأرض ، ويعثرون فيها على الزيت ، ويستخرجون من باطنها النحاس والرصاص والحديد والفضة والذهب . ويصف لنا استرابون كيف كان ما يسميه « النفط والأسفلت السائل » يستخرج من

أرض الجزيرة كما يستخرج منها اليوم ، ويقولون إن الإسكندر حين سمع بأنه
السائل العجيب ماء يحترق أراد أن يتثبت من هذا القول الذي لم يكده يصدقه ،
فطلى به جسد غلام وأوقد فيه النار بمشعل (٣٠) . وفي مستهل الألف السنة الأولى
قبل ميلاد المسيح بدأ الأهلون يصنعون الآلات من البرنز ثم من الحديد ،
وكانت لا تزال تصنع من الحجر في أيام حمورابي ، كما بدأت أيضاً صناعة
صهر المعادن وسبكها . وكانوا ينسجون القطن والصوف ، وكانت الأقمشة
تصبغ وتطرز بمهارة جعلتها من أتمن السلع التي تصديرها بابل إلى خارج
بلادها ، والتي وصفها كتاب اليونان والرومان أحسن وصف وأثنوا عليها
أجمل الثناء (٣١) . كذلك نجد نول النسيج وعجلة الفخراي في أقدم عهود
التاريخ البابلي ، ويكاد النول والعجلة أن يكونا الآتين الوحيدتين عند البابليين .
وكانت مبانيهم تقام من الطين المخلوط بالقش أو من اللبنة التي كانت توضع
بعضها فوق بعض وهي طرية زطبة وتترك حتى تجف وتماسك بفعل الشمس .
ولما رأى القوم أن اللبنة إذا جففت في النار كانت أصلب وأبقى على الزمن
منها إذا جففت في الشمس عمدوا إلى حرقها في قماش ، ومن ثم انتشرت صناعة
الأجر بفضل هذا التطور الطبيعي انتشاراً سريعاً . وكانت الصناعات والحرف
كثيرة متباينة ، وكثر المهرة من الصناع ، وتألقت منهم من عهد حمورابي نقابات
كانت تسمى (القبائل) يشترك فيها الصبيان والمعلمون (٣٢) .

وكانت تستخدم في النقل عربات تجرى على عجل بجرها الحمير (٣٣) ، وأول
ما ذكر الحصان في السجلات البابلية كان في عام ٢١٠٠ ق . م ، وورد ذكره
باسم « الحمار القادم من الشرق » ، ويظهر أنه جاء من هضاب آسية الوسطى
وأنه غزا بابل مع الكاشيين ، كما وصل إلى مصر مع الهكسوس (٣٤) . ولما
استخدمت هذه الوسيلة من وسائل الانتقال والحمل انتشرت التجارة وامتدت من
داخل البلاد إلى خارجها ، وأثرت بفضلها بابل وأصبحت مركز تجارة الشرق
الأدنى ، وكان انتشارها سبباً في ارتباط أم البحر المتوسط القديمة ارتباطاً

سجنت من ورائه الخيز والشر على السواء . وسهل نبوخذ نصر التجارة بإصلاح الطرق الرئيسية ، وقال في هذا يذكر المؤرخين بأعماله :

لقد جعلت من الممرات الوعرة غير المطروقة طرقاً ممهدة صالحة (٣٥) ، وكانت القوافل التجارية الكثيرة تحمل إلى أسواق بابل وحواليها غلات نصف العالم المعروف ، فكانت تأتيها من الهند مارة بكابول وهيرات وإكبتانا ، ومن مصر مارة ببلوزيم وفلسطين ، ومن آسية الصغرى عن طريق صور وصيدا وسارديس إلى قرقيش ، ثم تنحدر جنوباً مع نهر الفرات . وكان لهذه التجارة كلها أثر كبير في عظمة مدينة بابل ، فأضحت في أيام نبوخذ نصر سوقاً عظيمة تعج بالبضائع والتجار ، فخرج منها الأثرياء ينشدون الراحة في مساكن أقاموها في الضواحي . وجدير بالقارى أن يلاحظ تلك النعمة الحديثة المكتوبة بها الرسالة التي بعث بها أحد سكان الضواحي إلى قورش ملك الفرس (حوالي عام ٥٣٩ ق . م) : « لقد بدت لي ضيقتنا أجمل ضياع العالم ، ذلك أنها كانت قريبة من بابل قريباً يمكننا من أن نستمع بمزايا المدن العظمى ، وكان في وسعنا مع هذا أن نعود إلى بيتنا وننجو مما فيها من تراحم وقلق (٣٦) » .

ولم تفلح الحكومة في إقامة نظام اقتصادي في أرض الجزيرة كالذي أقامه للفراعنة في مصر . فقد كانت التجارة تصادف كثيراً من الأخطار وتفرض عليها شتى الإتاوات . ولم يكن التجار يعرفون أى الأمرين يخشونه أشد من الآخر - أيخشون اللصوص الذين قد يهاجمونهم في طريقهم . أم يخشون المدن والإقطاعيات التي تفرض عليهم الإتاوات نظير السماح لهم باستخدام طرقها . وكان آمن لهم أن يسيروا كلما استطاعوا في الطريق القوي العام ، طريق نهر الفرات نفسه ، وقد جعله نبوخذ نصر صالحاً للملاحة من مصبه في الخليج الفارسي إلى ثيساكس (٣٧) وفتحت حروبها في بلاد العرب وغلبته على صور بحار الهند والبحر المتوسط إلى التجارة البابلية ، ولكن التجار البابليين لم ينتهزوا هذه الفرص السانحة

لارتياح هذه البحار إلا ارتياداً جزئياً ، لأن التاجر كانت تكثفه الأخطار في كل ساعة من ساعات النهار والليل أيما سار : في البحار الواسعة وفي ممرات الجبال وفيافي الصحراء ، نعم إن السفائن كانت كبيرة تغالب الأمواج ، ولكن الحواجز والصخور كانت كثيرة في البحار ، ولم يكن فن الملاحة قد أصبح بعد علماء ذا قواعد وأصول ؛ هذا إلى أن لصوص البحار ، وسكان الشواطئ الطامعين قد يغيرون على السفن في أية ساعة ، وينهبون المتاجر ويأسرون بحارتها أو يقتلونهم (٣٨) وكان التجار يستعيضون عن هذه الحسائر بأن يقصروا أمانتهم على ما تفرضه عليهم الضرورات في كل حالة من الحالات .

لكن هذه الصعاب التجارية قد يسرها بعض التيسير ما كان في البلاد من نظام مالي راق محكم . نعم إن البابليين لم يسكوا النقود ، ولكنهم حتى قبل أيام حمورابي كانوا يستخدمون في المقايضة - فضلاً عن الشعير والقمح - سبائك الذهب والفضة وسيلة للتبادل ومعياراً لتقدير قيم الأشياء ، ولم تكن السبائك المعدنية مختومة أو مطبوعة بل كانت توزن في كل مرة ، وكانت أصغر وحدة في العملة هي الشاغل وهو نصف أوقية من الفضة تراوح قيمته بين ريالين ونصف وخمسة ريالات من نقود هذه الأيام . وكانت ستون شاقلًا تكون ميناً وستون ميناً تكون نالبتًا وقيمته من ١٠٠٠ ر . إلى ٢٠٠٠ ريال (٣٨) . وكانت القروض تتخذ صورة بضائع أو عملة ، وكانت فوائدها عالية تحددها الحكومة بعشرين في المائة سنوياً إذا كانت أنقود ؛ وبثلاثة وثلاثين في المائة إن كانت بضاعة . على أن التجار كانوا يتجاوزون هذين السعرين الرسميين ، ويستأجرون مهرة الكتاب ليخادعوا الوكلاء بتنفيذ القانون (*) (٣٩) . ولم يكن في البلاد مصارف مالية ،

(*) كما كان يحدث في هذه البلاد من عهد غير بعيد ، فقد كان المرابون يقرضون الفلاحين بفوائد تبلغ أحياناً ٢٥٪ في ثلاثة شهور وكانوا يحتالون هل القانون بإضافة الفائدة إلى رأس المال ويدعون أن يجموعهما قرص حسن بلا فائدة ! (المترجم)

ولكن بعض الأسر القوية كانت تقوم طيلة أجيال متعددة بعملية إقراض النقود ، كما كانت تتجر العقارات وتمول المشروعات الصناعية (٤٠) . وكان في وسع من لهم أموال مودعة بين هؤلاء أن يؤديوا التزاماتهم بتحاويل مالية مكتوبة (٤١) . وكان الكهنة أيضاً يقرضون ، وأخص ما كانوا يقرضون له من الأغراض هو الزرع والحصاد ، كانت الشرائع في بعض الأحيان تنصر المدين على الدائن . من ذلك أنه إذا رهن فلاح مزرعته ، ولم يجن من كدحه محصولاً بسبب العواصف أو الشرق أو غيرهما من « أفعال الله » ، فإنه لا يؤدي فوق فوائده عن دينه في السنة التي يعجز فيها المحصول (٤٢) . ولكن القانون كان في معظم الأحيان يحرص على حماية الملك وتجنيب صاحبه الخسائر ، وكان من المبادئ التي تقوم عليها الشرائع البابلية أن ليس من حق إنسان أن يقرض مالا إلا إذا رغب في أن يكون مسئولاً مسئولية كاملة عن رده إلى صاحبه ، ومن أجل هذا كان في وسع الدائن أن يقيض على عبد المدين أو ابنه يتخذه رهينة للدائن الذي لم يؤده ، على ألا يبقى في جوفته أكثر من ثلاث سنين . وكان الربا هو الكارثة التي رزئت بها بلاد بابل واليمن الذي أدته تجارتها ، كما تؤديه الآن تجارتنا نحن ، نظير ما كان يبعثه نظام الائتمان الواسع من نشاط تجاري عظيم (٤٣) .

لقد كانت حضارة البابليين حضارة تجارية في جوهرها ، وأكثر ما وصل إلينا من وثائقهم ذو صبغة تجارية - تتصل بالبيوع ، والقروض ، والعقود ، والمشاركة ، والسمسرة ، والتبادل ، والوصايا والاتفاقات والسفاح ، وما إليها . ونجد في هذه الألواح شواهد كثيرة تنطق بما كان عليه القوم من ثراء عظيم ، وبما كان يسرى في نفوسهم من روح مادية استطاعت كما استطاعت في حضارات أخرى غير حضارتهم أن توفق بين التقوى والشره . فنحن نرى في آدابهم دلائل كثيرة على الحياة النشيطة الراضية المرضية . ولكننا نجد أيضاً في كل ناحية من نواحيها ما يذكّرنا بما كان يسرى في الثقافات جميعها من استرقاق . وأكثر ما تلد

لنا قراءته من عقود البيع التي وصلت إلينا من عهد نبونخذ نصر ، العقود المتصلة بالعبيد (٤٤) . وكان مصدر هؤلاء العبيد أسرى الحروب ، والغارات التي يشنها البدو الرحّل على الولايات الأجنبية ، ونشاط العبيد أنفسهم في التناسل ، وكان ثمن الأرقاء يختلف من عشرين ريالاً إلى خمسة وستين للمرأة ، ومن خمسين ريالاً إلى مائة ريال للرجل (٤٥) . وكان هؤلاء العبيد هم الذين يؤدون معظم الأعمال العضلية في المدن ، وتدخّل في هذه الأعمال الخدمات الشخصية ، وكانت الجوارى ملكاً خالصاً لمن يبتاعهن ، وكان ينتظر منهن أن يمهّد له فراشه ويهيئن له طعامه ، وكان المعروف أنه سيستولد هنّ عدداً كبيراً من الأبناء ، فإذا رأت بعضهن أنهن يعاملن هذه المعاملة شعرن بمضض الإهمال والإهانة (٤٦) . وكان العبيد وكل ما ملكت يدها ملكاً لسيده : من حقه أن يبيعه أو يرهنه وفاء لدين ، ومن حقه أن يقتله إذا ظن أن موته أعود عليه بالفائدة من حياته . وإذا أبق العبد فإن القانون لا يبيح لأحد أن يحميه ، وكانت تقدر جائزة لمن يقبض عليه . وكان من حق الدولة أن تجنده كما تجند الفلاح الحر للخدمة العسكرية أو تسخره للقيام ببعض الأعمال العامة كشق الطرق . وحفر القنوات . لكنه كان له على سيده أن يؤدي عنه أجر الطبيب ، وأن يقدم له كفايته من الطعام إذا مرض أو تعطل عن العمل أو بلغ من الشيخوخة . وكان من حقه أن يتزوج بجرّة ، فإذا رزق منها أبناء كانوا أحراراً ، فإذا مات من هذا شأنه كان نصف أملاكه من حق أسرته وكان سيده أحياناً يكل إليه عملاً من الأعمال التجارية ، وكان من حقه في هذه الحال أن يحتفظ ببعض أرباح العمل وأن يبتاع بها حرّيته ، وكان سيده يعتقد أحياناً إذا أدى له خدمة ممتازة ، أو خدمه زمناً طويلاً بأمانة وإخلاص . ولكن هذا النوع الأخير من الحرية لم ينله إلا القليلون من العبيد . أما كثرتهم فكانوا يقنعون من حياتهم بكثرة الأبناء ، صاروا أكثر عدداً من الأحرار . فكانت طبقة الأرقاء الكبيرة تتحرك كأنها نهر تحت جياش يجرى تحت قواعد الدولة البابلية .

الفصل الثالث

القانون

قانون جورابي - سلطة الملك - تحكيم الآلة - القصاص - أنواع العقاب -
قوانين الأجور والأثمان - رد البضائع المسروقة عن طريق الدولة

وطبعي أن مجتمعاً كهذا لا تدور بخلده فكرة الديمقراطية ؛ ذلك أن نزعة الاقتصادية تتطلب أن تكون له حكومة ملكية مطلقة تسندها الثروة التجارية أو الامتيازات الإقطاعية ، ويحميها توزيع حكيم للعنف القانوني ، وكان كبار الملاك ، ومن حل محلهم بالتدريج من التجار الأثرياء ، هم الذين أعانوا الدولة على الاحتفاظ بنظامها الاجتماعي ، كما كانوا هم الواسطة بين الشعب ومليكه . وكان الملك يورث عرشه لمن يختاره من أبنائه بلا تفريق بينهم ، ومن ثم كان كل واحد من هؤلاء الأبناء يعدّ نفسه ولياً للعهد ويجمع حوله عصابة تناصر ، وكثيراً ما كان يشن الحرب على إخوته إذا لم تحقق آماله (٤٧) . وكان يدير دولا ب الحكومة في نطاق هذه القواعد التعسفية عدد من كبار الموظفين الإداريين في العاصمة وفي الأقاليم ، يعيّنهم الملك . وكان إلى جانبهم جمعيات إقليمية أو بلدية مؤلفة من أعيان البلاد أو شيوخها يسدون النصيحة إلى هؤلاء الحكام ، ويقفونهم عند حدودهم إذا تجاوزوها . وقد استطاع هؤلاء أن يحتفظوا للولايات بقسط موفور من الحكم المحلي حتى في أيام سيطرة الأثوريين (٤٨) .

وكان كل موظف إداري ، كما كان الملك نفسه في معظم الأحوال ، يعترف بسلطان كتاب القانون العظيم الذي تحدد وضعه وصيغته في عهد جورابي ، ويسترشد به . وقد ظل هذا القانون العظيم محفوظاً بجوهره خمسة عشر قرناً كاملاً رغم ما طرأ على أحوال البلاد من تغيير ، ورغم ما أدخل

عليه من تفاصيله وكان تطوره يهدف إلى استبدال العقوبات/الدينية بما كان فيه من عقوبات دينية ، كما يهدف إلى استبدال الرحمة بالقسوة والغرامات المالية بالعقوبات البدنية . مثال ذلك أن محاكمة المتهمين كانت في الأيام الأولى توكل إلى الآلهة ، فإذا اتهم رجل بممارسة السحر ، أو اتهمت امرأة بالزنى ، طلب إليهما أن يقفزا على نهر الفرات ، وكانت الآلهة على الدوام في جانب أقدر المتهمين على السباحة ، فإذا نجت المرأة من الغرق كانت نجاتها برهاناً على براءتها ، وإذا غرق « الساحر » آلت أملاكه إلى من اتهمه ، أما إذا نجا من الغرق فإنه يستولى على أملاك متهمه (٤٩) . وكان القضاة الأولون من الكهنة ، وظلت الهياكل (٥٠) مقر معظم المحاكم إلى آخر تاريخ البابليين ، لكن محاكم غير دينية لا تسأل عن أحكامها إلا أمام الحكومة أخذت من أيام حمورابي نفسه تحل محل المراكز القضائية التي كان يرأسها الكهنة .

وقام العقاب في أول الأمر على مبدأ قانون القصاص لا النفس بالنفس والعين بالعين . فإذا كسر إنسان لرجل شريف سناً ، أو فقاً له عيناً ، أو هشم له طرفاً من أطرافه ، حل به نفس الأذى الذي سببه لغيره (٥١) . وإذا انهار بيت وقتل من اشتراه حكم بالموت على مهندسه أو بانيه ، وإذا تسبب عن سقوطه موت ابن الشاري حكم بالموت على ابن البائع أو الباني ، وإذا ضرب إنسان بنتاً وماتت لم يحكم بالموت على الضارب بل حكم به على ابنته (٥٢) . ثم استبدل بهذه العقوبات النوعية شيئاً فشيئاً غرامات مالية ، وبدأ ذلك بأن أجزأ أداء فدية مالية بدل العقوبة البدنية (٥٣) . ثم أصبحت الفدية بعدئذ العقوبة الوحيدة التي يجزها القانون ، فكان جزاء فقء عين السوق ستين شاقلاً من الفضة ، فإذا فقئت عين عبد كان جزاء فقئها ثلاثين (٥٤) . ذلك أن العقوبة لم تكن باختلاف خطورة الجريمة وحسب ، بل كانت تختلف أيضاً باختلاف مركز الجاني والمجنى عليه . فإذا ارتكب أحد السراة جريمة كان عقابه أشد من عقاب السوق إذا ارتكب الجريمة نفسها ، أما الجريمة التي ترتكب ضد أحد الأشراف فقد كانت غالية

الثلث . وإذا ضرب أحد السوقه آخر من طبقته غرم عشرة شواقل أو ما يقرب من خمسين ربالا ، فإذا ما ضرب شخصاً ذا لقب أو ذا مال غرم سبعة أضعاف هذا المبلغ (٥٥) . وإلى هذه العقوبات الرادعة كانت هناك عقوبات همجية هي بتر الأعضاء أو الإعدام . فإذا ضرب رجل أباه جوزى بقطع يده (٥٦) . وإذا تسبب طبيب أثناء جراحة في موت مريض أو في فقد عين من عينيه قطعت أصابع الطبيب (٥٧) . وإذا استبدلت قابلة طفلاً بآخر عن علم بفعلتها قطع ثدياها (٥٨) . وكانت جرائم كثيرة يعاقب عليها بالموت ، منها هتك العرض ، وخطف الأطفال ، وقطع الطرق ، والسطو ، والفسق بالأهل ، وتسبب المرأة في قتل زوجها لتزوج بغيره ، ودخول كاهنة خماراً أو فتحها إياها ، وإيواء عبد آبق ، والجن في ميدان القتال ، وسوء استعمال سلطة الوظيفة ، وإهمال الزوجة شئون بيتها أو سوء تدبيرها (٥٩) ، وغش الخمر (٦٠) . بهذه الوسائل التي دامت آلاف السنين استقرت التقاليد والعادات التي أدت إلى حفظ النظام وضبط النفس . والتي أضحت فيما بعد عن غير قصد جزءاً من الأسس التي قامت عليها الحضارة .

وكانت الدولة تحدد أثمان السلع والأجور والأتعاب داخل نطاق بعض الحدود . فأجر الجراح مثلا كان يقرره القانون وحدد قانون حمورابي أجور البنائين ، وضاربي الطوب ، والخياطين ، والبنائين بالحجارة ، والنجارين ، والبحارة ، والرعاة ، والفعلة (٦١) . وخص قانون الوراثة أبناء الرجل بتركته دون زوجته ، فجعلهم ورثته الطبيعيين الأقربين ؛ فإذا مات رجل عن زوجته كان لها الحق في مهرها وفي هدية عرسها ، وظلت زينة البيت ما دامت على قيد الحياة . ولم يكن حق الميراث محصوراً في الابن الأكبر بل كان الأبناء كلهم سواسية في الميراث ، ومن ثم لم تلبث الثروات الكبرى أن تقسمت وتقسمت ، فامتنع بذلك تركها في أيدي قلائل (٦٢) . وكان القانون يعيد الملكية الفردية للعقار والمنقولات أمراً مسلماً به لا جدال فيه .

ولم نجد في الوثائق ما يستدل منه على وجود المحامين في بابل إلا إذا اعتبرنا من المحامين القسيسين الذين كانوا يعملون ، وثقين للعقود ، والكتابة الذين كانوا يكتبون كل ما يطلب إليهم كتابته من الوصية إلى الأرجوزة نظير أجر يتقاضونه ، وكان المدعى يترافع في قضيته بنفسه دون أن يستعين بترف الاصطلاحات القانونية . ولم يكن أناس يشجعون على التقاضي ، فقد كانت أول مادة في القانون تنص في بساطة تكاد تكون غير « قانونية ! » . على أنه ، إذا اتهم رجل آخر بجريمة (يعاقب عليها بالإعدام) ثم عجز عن إثباتها محكم على المدعى نفسه بالإعدام « (٦٣) . وثمة شواهد دالة على وجود الرشوة وإفساد الشهود (٦٤) ، وكانت في مدينة بابل محكمة استئناف يحكم فيها « قضاة الملك » ، وكان في وسع المتقاضين أن يرفعوا استئنافاً نهائياً إلى الملك نفسه . وليس في شرائع بابل ما يفيد وجود حق للفرد قبيل الدولة ، بل كان الفضل في النص على هذا الحق فضل الأوربيين . غير أنه ، إذا لم يوفر القانون للأهلين الحماية السياسية فلا أقل من أنه قد وفر لهم في المواد ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ الحماية الاقتصادية : « إذا ارتكب رجل جريمة السطو وقبض عليه ، حكم على ذلك الرجل بالإعدام » . فإذا لم يقبض عليه كان على المسروق منه أن يلبس ، في مواجهة الإله ، ببيان مفصل عن خسائره ، وعلى المدينة التي ارتكبت السرقة في داخل حدودها والحاكم الذي ارتكبت في دائرة اختصاصه أن يعرضه عن كل ما فقده . فإذا أدى السطو إلى خسارة في الأرواح دفعت المدينة ودفع الحاكم مينا (٣٠٠ ريال) إلى ورثة القتيل » . فهل ثمة في هذه الأيام مدينة بلغ صلاح الحكم فيها درجة تجرؤ معها على أن تعرض على من تقع عليه جريمة بسبب إهمالها مثل هذا التعويض ؟ وهل ارتقت الشرائع حقاً عما كانت عليه أيام حمورابي ، أو أن كل الذي حدث لها أن تعقدت وتضخمت ؟

الفصل الرابع

آلهة بابل

الدين والدولة - واجبات الكهنة وسلطانهم - الآلهة الصغار - مردك - إشتار - القصص البابلية عن خلق العالم والظوفان - حب إشتار وتموز - نزول إشتار إلى الجحيم - موت تموز وبمته - الطقوس الدينية والصلوات - تسايح التوبة - الخطيئة - السحر - الخرافات

لم تكن سلطة الملك يقيدها القانون وحده ولا الأعيان وحدهم ، بل كان يقيدها أيضاً الكهنة . ذلك أن الملك لم يكن من الوجهة القانونية إلا وكيلاً لإله المدينة ، ومن أجل هذا كانت الضرائب تفرض باسم الإله ، وكانت تتخذ سبيلها إلى خزائن الهياكل إما مباشرة أو بشتى الأساليب والحيث . ولم يكن الملك يُعدّ ملكاً بحق في أعين الشعب إلا إذا خلع عليه الكهنة سلطته الملكية ، و « أخذ بيد بل » ، واخترق شوارع المدينة في موكب مهيب مسكاً صورة مردك . وكان الملك في هذه الاحتفالات يلبس زي الكاهن ، وكان هذا رمزاً إلى اتحاد الدين والدولة . ولعله كان أيضاً يرمز إلى أصل الملكية الكهنوتية . وكانت تحيط بعرشه جميع مظاهر سخاوت الطبيعة ، ومن شأن هذه كلها أن تجعل الخروج عليه كفراً ليس كمثل كفر ، لا يجزى من يجروء عليه بضباع رقبتة فحسب ، بل يجزى أيضاً بنحسران روحه وحقن حورابى العظيم نفسه تلى قوانينه من الإله . ولقد ظلت بلاد بابل في واقع الأمر دولة دينية « خاضعة لأمر الكهنة » على الدوام (٦٥) من أيام الباتسين أو القساوسة - الملوك السومريين إلى يوم تنويج نبوخذ نصر .

وزادت ثروة الهياكل جيلاً بعد جيل كلما اقتسم الأثرياء المذنبون أرباحهم مع الآلهة . وكان الملوك يشعرون بشدة حاجتهم إلى غفران الآلهة ، فشادوا لهم الهياكل . وأمدوها بالأثاث والطعام والعبيد : ووقفوا عليها

مساحات واسعة من الأرض ، وحصوها بقسط من إيراد الدولة يؤدونه إليها في كل عام . فإذا غنم الجيش واقعة حربية كان أول سهم من الغنائم ومن الأسرى من نصيب الهياكل ، وإذا أصاب الملك مغنا قدمت الهدايا العظيمة للآلهة . وكان يفرض على بعض الأراضى أن تؤدى للهياكل ضريبة سنوية من التمر والحب والفاكهة ، فإذا لم تؤدها نزع الهياكل ملكيتها ، وانتقلت هذه الملكية للكهنة أنفسهم في أغلب الأحوال ، وكان الفقراء والأغنياء على السواء يخصصون للهياكل من مكاسبهم الدنيوية القدر الذى يظنون أنه يتفق ومصالحتهم الخاصة ، وبذلك تكسب في خزائن الهياكل الذهب ، والفضة ، والنحاس ، واللازورد ، والجواهر والأخشاب النفيسة .

وإذ لم يكن في مقدور الكهنة أن يستخدموا هذه الثروة كلها أو يستغلوها فقد حولوها إلى رأس مال منتج أو مستثمر ، وأصبحوا بذلك أعظم القوامين على الشؤون الزراعية والصناعية والمالية في الأمة بأسرها . ولم يكونوا يملكون مساحات واسعة من الأرض فحسب ، بل كانوا يملكون فوق ذلك عدداً عظيماً من العبيد ، ويسيطرون على مئات من العمال ، يؤجرونهم لغيرهم من أصحاب الأعمال ، أو يسجرونهم لخدمة الهياكل بالعمل في حرف لا حصر لها ، تختلف ما بين عزف على الآلات الموسيقية إلى عصر الخمر (٦٦) . كذلك كان الكهنة أعظم تجار بابل ورجال المال فيها ، وكانوا يبيعون ما في حوانيت المعابد من سلع مختلفة ، ويسهمون بقسط موفور في تجارة البلاد . وقد عرف عنهم أنهم من أحكم الأهلين في استثمار الأموال ، ولهذا عهد إليهم الكثيرون استثمار أموالهم المدخرة لوثوقهم من أنهم سيحصلون منها على أرباح مضمونة وإن لم تكن موفورة . وكانوا يقرضون المال بشروط أرحم من الشروط التى يقرضه بها غيرهم من الأفراد ، وكانوا في بعض الأحيان يقرضون المرضى والفقراء بغير فائدة ، لا يطلبون إلا رؤوس أموالهم حين يبسم مردك للمقرض من جديد (٦٧) . وكانوا

إلى هذا كله يؤدون بعض الأعمال العامة ، فكانوا يعملون في توثيق العقود ، ويشهدون عليها ، ويوقعونها بأسمائهم ، ويكتبون الوصايا ، ويستمعون إلى القضايا والمحاكمات ويفصلون فيها ، ويحفظون السجلات الرسمية ، ويسجلون الأعمال التجارية .

وكان الملك أحياناً يصادر بعض أموال الهياكل إذا واجه أزمة تتطلب المال الكثير . ولكن هذا كان عملاً نادراً شديد الخطورة ، لأن الكهنة كانوا يصبون أشد اللعنات على كل من يمس "أقل شيء" من الأملاك الدينية بغير إذن منهم . هذا إلى أن نفوذهم لدى الأهلين كان أعظم من نفوذ الملك نفسه ، وكان في وسعهم في بعض الأحيان أن يخلعوه عن عرشه إذا أجمعوا أمرهم وسخروا ذكاءهم وقواهم لهذه الغاية . يضاف إلى هذا أنهم يمتازون بالدوام والخلود ، ذلك أن الملك يموت أما الإله فمخلد ، ومن أجل هذا كان مجمع الكهنة الآمن من تقلبات الانتخاب ، وأخطار المرض ، والاعتقال والحرب ، هيئة دائمة في مقدورها أن تضع الخطط الطويلة الأجل ، وهي ميزة لا تزال تتمتع بها الهيئات الدينية الكبرى إلى هذا اليوم . كل هذه ظروف جعلت للكهنة سلطاناً فوق كل سلطان . وكان الأقدار قد شاءت أن تقوم بابل على جهود التجار ، وأن يستمتع بخيراتهم الكهنة .

ترى ما هي تلك الآلهة التي كانت الشرطة الخفية للدولة البابلية ؟ لقد كانت هذه الآلهة كثيرة العدد ، لأن الأهلين كان لهم في خلقها خيال واسع لا ينضب معينه ، ولم يكن ثمة حد للخدمات التي يمكن أن تؤديها لهم آلهتهم . وقد أحصى عدد الآلهة إحصاء رسمياً في القرن التاسع قبل الميلاد فكانوا حوالي ٦٥٠٠٥ (٦٨) . ذلك أن كل مدينة كان لها رب يحميها ، وكان يحدث في بابل ودينها ما يحدث عندنا اليوم وفي ديننا نحن ، فقد كان للمقاطعات والقرى آلهة صغيرة تعبدتها وتخلص لها ، وإن كانت تخضع رسمياً

للإله الأعظم : فقد أقيمت في لارسا الهياكل الكثيرة لشمس ، وإشتار في أروك ، ولنتار في أور - ذلك أن الآلهة السومرية لم ينقض عهدها بانقضاء عهد دولة السومريين . ولم يكن الآلهة بمنأى عن الأهلين ، فقد كان معظمهم يعيشون على الأرض في الهياكل ، يأكلون الطعام بشهية قوية ، ويزورون الصالحات من النساء في أثناء الليل فيستولدونهن أطفالاً لم يكن أهل بابل العاملون المجدون يتوقعون أن يولدوا لهم (٦٩)

وأقدم الآلهة كلهم آلهة السماء وما فيها : أنو السماء الثابتة ، وشمس الشمس ، وبتار القمر ، وبل أو بعل الأرض التي يعود كل البابليين إلى صدرها بعد مماتهم (٧٠) . وكان لكل أسرة آلهتها المنزلية تقام إليها الصلاة ، وتصيب إليها الخمر في كل صباح ومساءً ، وكان لكل فرد رب يحميه (أو مملكته يخرسه كما نقول نحن بلغة هذه الأيام) ، يرد عنه الأذى والشور ، وكان جن الحصب يحومون فوق الحقول ليباركوها . ولعل اليهود قد صاغوا ملائكتهم من هذا الحشد العظيم من الأرواح .

ولسنا نجد لدى البابليين شواهد على التوحيد كالتى ظهرت في عهد إخناتون وعهد إشعيا الثاني ، على أن قوتين من القوى قد قربتا من هذا التوحيد ، أولاهما اتساع رقعة دولتهم عقب الحروب ، وهذا الاتساع أخضع آلهتهم المحلية لسلطان إله واحد ، والقوة الثانية أن كثيراً من المدن كانت تخضع على إلهها الخاص المحبب لها السلطان الأعلى والقدرة على كل شيء . من ذلك قول نبو مثلاً : « آمن بنبو ، ولا تؤامن بغيره من الآلهة (٧١) » . ولا يختلف هذا القول كثيراً عن الوصية الأولى من وصايا اليهود . وقل عدد الآلهة شيئاً فشيئاً بعد أن فسرت الآلهة الصغرى بأنها صور أو صفات للآلهة الكبرى . وعلى هذا النحو أصبح مردك إله بابل - وكان في بادئ الأمر من آلهة الشمس - كبير الآلهة البابلية (٧٢) . ومن ثم لقب بل - مردك أي مردك الورى ، وإليه وإلى إشتار كان البابليون يوجهون أحر صلواتهم وأبلغ دعواتهم .

وليس أهمية إشتار (وهي إشتارثي عند اليونان وعشتورت عند اليهود)
لدينا مقصورة على أنها شبيهة بإيزيس إلهة المصريين ، وعلى أنها النموذج الذي
صاغ اليونان على مثاله إلهتهم أفرديتي والرومان فينوس ، بل إنها تهمنا فوق
ذلك لأنها تبارك عادة من أغرب العادات البابلية ، فقد كانت هي دمر
وأفرديتي معاً - أي أنها لم تكن إلهة جمال الجسم والحب فحسب ، بل كانت
فوق هذا الإلهة الرحيمة التي تعطف على الأمومة الولود ، والموحيبة الخفية
بخصب الأرض ، والعنصر الخلاق في كل مكان ، ويستحيل علينا ، إذا نظرنا
إلى صفات إشتار ووظائفها بمنظور هذه الأيام ، أن نجد بينها كثيراً من
التناسق ، فقد كانت مثلاً إلهة الحرب والحب ، وإلهة العاهرات والأمهات ،
وكانت تسمى نفسها « المحظية الرحيمة » (٧٣) . وكانت تصور أحياناً في صورة
امرأة عارية تقدم ثديها للرضاع (٧٤) . ومع أن عبادها كثيراً ما يخاطبونها
بقولهم « العذراء » و « العذراء المقدسة » و « الأم العذراء » ، فإن كل
ما تعنيه هذه الأقوال أن حبها كان مبرأ من دنس الزواج . وقد رفض جلجيميش
أن يتزوج بها حين عرضت عليه الزواج ، ورجته في ذلك أنها لا يوثق بها ،
لم تحب في يوم من الأيام أسداً وأغوته ، ثم قتلته (٧٥) ؟

وجلي أننا يجب أن نتغاضى عن قانوننا الأخلاقي إذا شئنا أن نفهم مقام هذه
الإلهة على حقيقته . فليتأمل القارئ تلك الحماسة القوية التي يرفع بها البابليون إلى
مقامها العظيم تسابيح الحمد التي لا يكاد يفوقها في روعتها إلا تلك التسابيح
التي كان الأتقياء من المسيحيين يرفعونها فيما مضى لمريم أم المسيح :

أتوسل إليك يا سيدة السيدات ، يا ربة الربات ، يا إشتار ،
يا ملكة المدائن كلها ، ويا هادية كل الرجال .

أنت نور الدنيا ، أنت نور السماء ، يا ابنة سن العظيم (إله القمر) . . .

ألا ما أعظم قدرتك ، وما أعظم مقامك فوق الآلهة أجمعين .

أنت تحكمين وحكمك عدل .

وإليك تخضع قوانين الأرض وقوانين السماء .

وقوانين الهياكل والأضرحة ، وقوانين المساكن الخاصة والغرف الخفية .

أين المكان الذى لا يذكر فيه اسمك ، وأين البقعة التى لا تعرف

فيها أوامرك ؟

إذا ذكر اسمك اهتزت لذكركه الأرض والسموات ، وارتجفت له الآلهة

إتلك تنظرين إلى المظلومين ، وتنصفين فى كل يوم المهانين المحقرين

إلى متى يا ملكة السماء والأرض ، إلى متى ؟

ئى متى يا راعية الرجال الشاجبي الوجوه تمهلين ؟

إلى متى ، أيتها الملكة التى لا تكمل قدمها ، والتى تسرع ركبتها ؟

إلى متى يا سيدة الجيوش ، يا سيدة الوقائع الحربية ؟

يا عظيمة ، يا من تهابك كل أرواح السماء ويا من تخضعين كل الآلهة

الغضاب ، ويا قوية فوق كل الحكام ، ويا من تمسكين بأعنة الملوك ؟

يا فاتحة أرحام جميع الأمهات ، ما أجل سنائك !

يا نور السماء للبراق ، يا نور العالم ، يا من تضيئين كل الأماكن التى

يسكنها بنو الإنسان ، يا من تجمعين جيوش الأمم

يا إلهة الرجال ، ويا ربة النساء ، إن مشورتك فوق متناول العقول ،

حيث تتطلعين تعود الحياة إلى الموتى ، ويقوم المرضى ويمشون ،

ويشفى عقل المريض إذا نظر إلى وجهك

إلى متى ، أيتها السيدة ، ينتصر على عدوى ؟

فرى ، فمتى أمرت ارتد الإله الغضوب

إن إشتار عظيمة ! إشتار ملكة ! سيدتى ، جليلة القدر ، سيدتى ملكة ،

إنبنى ، ابنة سين القوية . لیس لها مثیل (٢٦) .

واتخذ البابليون هذه الآلهة شخصيات نسجوا حولها أساطيرهم التي وصل
إلينا معظمها عن طريق اليهود ، وأضحت جزءاً من قصصنا الديني . وأون
ما نذكره من قصصهم قصة الخلق . فقد كان في أول الأمر عماء « ففي الوقت
الذي لم يكن فيه شيء عال يسمى السماء ، ولم يكن شيء وطىء يسمى الأرض ،
جاء أبو المحيط ، وكان أبا الأشياء أول الأمر ، وتيامات العماء ، التي ولدتها
كلها ، وخالطاً ماءهما معاً » ، وبدأت الأشياء تنمو على مهل وتتخذ لها أشكالاً ،
ولكن تيامات الإلهة المهولة شرعت تبيد كل الآلهة الآخرين ، لتجعل نفسها
- العماء - صاحبة المقام الأعلى . وأعقب هذا ثورة عنيفة اضطرب منها
كل نظام : ثم جاء إله آخر وهو مردك وقتل تيامات بدواتها هي ، وذلك بأن
دفع في فمها ريحاً عاصفة حين فتحته لتبتلعه . ثم طعنها برمح في بطنها الذي
انفتح بما دخله من الريح ، فانفجرت إلهة العماء . وتقول القصة بعدئذ إن
مردك « عاد إليه هدوؤه » فقسم تيامات الميتة قسمين مستطيلين ، كما يقسم
الإنسان السمكة ليحفظها ، « ورفع أحد النصفين إلى أعلى فكان هو السماء ،
وبسط النصف الآخر تحت قدميه فكان الأرض » (٧٧) . هذا كل ما وصل إلى
علمنا حتى الآن عن قصة الخلق عند البابليين . ولعل الشاعر القديم أراد أن
يوحى إلينا بهذه القصة أننا لا نعرف عن بداية الخلق إلا أن النظام قد استبدل
بالفوضى والعماء ، لأن هذا في آخر الأمر هو جوهر الفن والحضارة . على أننا
يجب ألا يغرب عن بالنا أن هزيمة العماء ليست إلا أسطورة من الأساطير (*) .

ولما أنفتق مردك السماء والأرض ووضعهما في مكانيهما ، شرع يعجن الأرض
بدمائه ويصنع الناس لخدمة الآلهة . وتختلف القصص البابلية في وصف الطريقة

(*) وكتبت قصة الخلق البابلية على سبعة ألواح (كل يوم من أيام الخلق على لوح)
وقد وجدت في خرائب مكتبة آشور بانينبال في قويرونجك (نينوى) في عام ١٨٥٤ . وهذه
الألواح نسخة من قصة المنحدت إلى بابل وأشور من بلاد سومر (٧٨) .
والمؤلف يريد بقوله : « إن استبدال العماء بالفوضى أسطورة » أن الفوضى لاتزال
تضرب أطنابها في الأرض وأنها لا تكاد تزول منها حتى تعود إليها . (المترجم)

الدقيقة التي تم بها صنع الإنسان ، ولكنها تتفق كلها بوجه عام في القول بأن
إله صنع الإنسان من قطعة من الطين ، وهي لا تصفه بأنه كان يعيش في
بادئ الأمر في جنة بل تقول إنه كان يعيش عيشة حيوانية في جهل وبساطة
حتى جاءه وحش مهول يدعى أونس نصفه سمكة ونصفه فيلسوف ، وعلمه
الفنون والعلوم وتخطيط المدن ومبادئ القانون ؛ ولما علمه إياها نزل إلى
البحر وكتب كتاباً في تاريخ الحضارة (٧٩) . غير أن الآلهة لم تلبث أن غضبت
على الناس الذين خلقتهم ، فأرسلت عليهم طوفاناً عارماً لتهلكهم وتمحو به
سبب أعمالهم وأشفق إلى الحكمة على البشر واعتزم أن ينجي منهم
على الأقل رجلاً واحداً شمش - نيشتين وزوجته . « وظل الطوفان
مهتاجاً ، وغص البحر بالخلق كأنهم سراء السمك » . ثم بكّت الآلهة على
حين غفلة وعضت بنان الندم على غفلتها وسوء تدبيرها وتساءلت « عمن
سيقرب لها القربان المعتاد ؟ » ، ولكن شمش - نيشتين كان قد بنى فلكا
ونجا من الطوفان وحط على جبل نزير ، وأرسل يمامة تستطلع ؛ ثم قرر
أن يقرب القربان للآلهة ، وقبلت الآلهة قربانه وهي مندهشة شاكرة .
« وشمت الآلهة الرائحة ، شمت الآلهة الرائحة الذكية ، واجتمعت كالذباب
فوق القربان » (٨٠) .

وأجمل من هذه الذكرى الغامضة ، ذكرى الطوفان المخرب ، أسطورة
إشتار وتموز . وكان تموز حسب نص القصة السومري أنخا أصغر لإشتار ،
أما في النص البابلي فهو أحياناً حبيبها وأحياناً ابنها . ويلوح أن
كلا النصين قد سرى إلى أسطورة فينوس (الزهرة) وأدنيس ، وأسطورة
دمتروپرستون ، وإلى عشرات العشرات من القصص الأخرى التي
تتحدث عن الموت والبعث . وتموز هذا ، ابن الإله العظيم إى ، راع
يرعى غنمه تحت إرید الشجرة العظيمة (التي تغطي الأرض كلها بظلها) ،
وبينا هو يرعاها إذ شغقت بحبه إشتار ، وهي دوماً ظمأى إلى الحب ،
واختارته زوجاً لها في شبابها . ولكن خنزيراً برياً يطعن تموز طعنة

قاتلة فيهوى كما يهوى جميع الموتى إلى الجحيم المظلم تحت الأرض واسمه أراو
عند البابيين ، وكانت تحمكه إرشكجال أخت إشتار التي كانت تغار منها
وتحسدها ، وتحزن إشتار ويبرح بها الحزن ، فتعزم النزول إلى أراو لتعيد
الحياة إلى تموز ، وذلك بأن تغسل جروحه في مياه إحدى العيون الشافية .
وسرعان ما تظهر عند باب الجحيم في جمالها الرائع وتطلب أن يؤذن لها
بالدخول . وتقص الألواح قصتها في صوة واضحة قوية :

فلما سمعت إرشكجال هذا

كانت كمن يقطع الطرفاء (ارتجفت ؟)

وكما يقطع الإنسان قصبه (اضطربت ؟)

« أى شىء حرك قلبها ، أى شىء (خفقت له) كبدها ؟

يا من هناك ، (هل) هذه (هل) هذه (تريد أن تقيم) معى ؟

وأن تتخذ من الطين طعاماً ، وأن تشرب (التراب) خمراً ؛

إننى أبكى الرجال الذين فارقوا أزواجهم ،

وأبكى النساء اللاتي انتزعن من أحضان أزواجهن ،

والصغار الذين (احتضروا قبل الأوان) ،

اذهب أيها الخازن ، وافتح لها الباب ،

وعاملها بمقتضى القرار القديم .

وهذا القرار القديم يقضى بألا يدخل أراو إلا العراة . وعلى هذا فإن

الخازن يخلع عن إشتار ثوباً من ثيابها أو حلية من حليها عند كل باب يتحتم

عليها أن تجتازه : فيخلع عنها أولاً تاجها ، ثم قرطها ، ثم عقدها ، ثم خلية

صدرها ، ثم منطقتها ذات الجواهر الكثيرة ، ثم الزركشة البراقة التي في

يديها وقدميها ، ثم يخلع عنها آخر الأمر منطقة حقوبها ، وتبانع إشتار في

رقة ثم تخضع :

فلما نزلت إشتار إلى الأرض التي لا يعود منها من يدخلها

أبصرتها إرشكجال وأغضبها مجيؤها
وألقت إشتار بنفسها عليها من غير تفكير
وفتحت إرشكجال فإها وتحدثت

إلى نمتار رسولها .

« اذهب ، يا نمتار ، (واسجنها ؟) في قصرى ،

وسلط عليها ستين مرضاً ،

مرض العيون على عينيها ،

ومرض الجنب على جنبها ،

ومرض الأقدام على قدميها ،

ومرض القلوب على قلبها ،

ومرض الرأس على رأسها

على جميع جسدها .

وبينا كانت إشتار حبيسة في الجحيم بما أرسلته عليها أنحتها ، شعرت
الأرض بأنها فقدت ما كان يوحى به إليها وجودها على ظهرها ، فنسيت
جميع الفنون وطرائق الحب ، فلم يعد النبت يلقيح النبت ، وذبلت الخضرة
ولم تشعر الحيوانات بحرارة ، وامتنع الرجال عن الحنين :

ولما نزلت السيدة إشتار إلى الأرض التي لا يعود منها من يدخلها

لم يعمل الثور البقرة ، ولم يقرب الحمار الأتان

والفتاة في الطريق لم يقرب منها رجل ؛

ونام الرجل في حجرتة

ونامت الفتاة ومهدا .

وأخذ السكان يتناقصون ، وارتفعت الآلهة حين رأت نقص ما ترسله

إليها الأرض من القرابين ، واستولى عليها الدهر فأمرت إرشكجال أن تطلق

سراح إشتار ، وتصدغ إرشكيجال بأمر الآلهة ، ولكن إشتار تأبى أن تعود إلى ظهر الأرض إلا إذا سمح لها أن تأخذ معها تموز . وتجاب إلى طلبها ، وتجتاز وهي ظافرة الأبواب السبعة ، وتتسلم منطقة حقوبها ثم الزركشة البراقة التي كانت على يديها وقدميها ، ثم منطقتها ، ثم حلى صدرها ، وعقدتها ، وقرطبيها ، وتاجها . فلما ظهرت على الأرض نما النبات وأينع من جديد ، وامتألت الأرض طعاماً ، وكاد كل حيوان يعمل الإكثار من نسله (٨١) ، وعاد الحب - وهو أقوى من الموت - إلى مكانه الحق سيد الآلهة والأناسي . تلك قصة كل ما يراه فيها عالم اليوم أنها قصة رائعة خليقة بالإعجاب ، ترمز في صورة جميلة ممتعة إلى موات التربة وعودتها إلى الحياة في كل عام ، وإلى ما للحب من قدرة دونها كل قدرة ، وصفها لكريتس في شعره القوي حين تحدث عن الزهرة (فينوس) . أما البابليون فكانت لهم تاريخاً مقدساً يؤمنون به أقوى إيمان ، ويحتفلون بذكرى وقائعه في يوم يحزنون فيه وينتحبون ويبيكون تموز الميت ، يتلوه يوم يتهيجون فيه ويمرحون وهو يوم بعثه (٨٢) .

بيد أن عقيدة الخلود لم يكن فيها ما تبهج له نفس البابلي . ذلك أن دينه كان ديناً أرضياً عملياً ، فإذا صلى لم يكن يطلب في صلته ثواباً في الجنة بل كان يطلب متسعاً في الأرض (٨٣) ، ولم يكن يثق بآلهته بعد أن يوارى في قبره . نعم إن نصباً من نصوصهم يصف مردك بأنه « الذي يحيى الموتى » (٨٤) ، وأن قصة الطوفان تقول إن من نجواً منه قد عاشوا أبد الدهر . ولكن فكرة البابليين عن الحياة الآخرة كانت في جملتها شبيهة بفكرة اليونان ، فكرة أموات - فيهم قديسون وأنذال ، وفيهم عباقرة وبلهاء ، يذهبون كلهم إلى مكان مظلم في جوف الأرض ولا يرى الضوء من بعد ذلك أحد منهم ، وكانت هناك جنة ولكنها اختصت بالآلهة ، أما أروال التي يهبط إليها جميع الناس فكانت داراً للعقاب في معظم الأحوال ، ولم تكن قط دار نعيم ، تقيد فيها أيدي الموتى وأرجلهم أبد الدهر ، وترتجف فيها أجسامهم من البرد ،

يجوعون فيها وينظمأون إلا إذا وضع أبناؤهم لهم الطعام في قبورهم في أوقات معينة (٨٥) ، ومن كان منهم كثير الذنوب على ظهر الأرض لى فيها أشد العذاب ؛ فسلط عليه الجحدم يأكل جسمه أو غيره من الأمراض التى أعدها له ترجال وآلات سيد أوالو وسيدتها ليتطهر بها من ذنوبه .

وكانت أكثر أجسام الموتى تدفن فى قباب ، ومنها ما كان يحرق وهو قليل ، ثم تحفظ بقاياها فى قوارير (٨٦) ، ولم تكن الجثث تحنط ، ولكن نادبين محترفين كانوا يغسلون الجثة ، ويلبسونها ثياباً حسنة ، ويصبغون خديها ، ويسودون جفونها ، ويلبسونها خواتم فى أصابعها ، ويضعون معها بديلا من الملابس الداخلية التى تلبسها . وإذا كانت الجثة لامرأة وضعت معها قوارير العطور ، والأمشاط ، وأقلام الأدهان ، وكحل للعينين ، وذلك لكى تحفظ بطيب رائحتها وجمال وجهها فى الدار الآخرة (٨٧) . وكانوا يعتقدون أن الميت إذا لم يدفن على خير وجه عذب الأحياء ، وإذا لم يدفن قط حامت روحه حول البالوعات والميازيب تطلب فيها الطعام ، وقد تصيب مدينة برمتها بالأوبئة الفتاكة (٨٨) . هذا كله خايط من الأفكار ليست كلها منطقية متماسكة تماسك الهندسة الإقايديية ، ولكن فيها ما يكفى لحفز البابلي الساذج على أن يقدم لآلهته وقساوسته كفايتهم من الطعام والشراب .

وكان الطعام والشراب أكثر ما يقرب من القرايين ، وذلك لأن ما يتبقى منهما لا يثلف حتماً إذا لم يطعمه الآلهة . وكثيراً ما كان الضأن يضحى به على المذابح البابلية ، ولقد وصلت إلينا رقبة بابلية هى سابقة عجيبة لكبش الفداء عند اليهود والمسيحيين : « الكبش فداء الإنسان ، الكبش الذى يفتدى به حياته » (٨٩) . وكان تقرب القربان من الطقوس المعقدة التى تتطلب خدمات كاهن خبير بشئونها . وكانت التقاليد المتوارثة تقرر كل عمل يعمل ، وكل لفظ يقال ، فإذا أقدم على هذا العمل شخص هاو غير إخصائى فيه ، ثم حاد قيد شعرة عن المراسم المقررة ، فقد يكون معنى هذا أن تأكل الآلهة

الطعام ولا تصغى للدعاء . وكان الدين عند البابليين يُعنى بالمراسم الصحيحة أكثر مما يعنى بالحياة الصالحة . فإذا شاء الإنسان أن يؤدي ما يجب عليه نحو الآلهة كان عليه أن يقرب القربان اللائق للهيكل ، ويتأوى الصلوات والأدعية المناسبة (٩٠) . أما فيما عدا هذا فقد كان في وسعه أن ينفق عين عدوه المهزوم ويقطع أيدي الأسرى وأرجلهم ، ويشوى ما بقي من أجسامهم وهم أحياء (٩١) ، دون أن يؤدي بذلك آلهة السماء .

وكان أهم ما يجب أن يعمل البابلي التقي المستمسك بدينه أن يشترك في المواكب الطويلة المهيبة كالمواكب التي كان الكهنة ينقلون فيها صورة مردك من هيكل إلى هيكل ، ويمثلون فيها مسرحية موته وبعثه المقدسة ، أو أن يحضر هذه الاحتفالات وهو خاشع ، وأن يطلى الأصنام بالزيوت العطرة (*) ، ويحرق البخور بين يديها ، ويلبسها أحسن الثياب وأغلاها . أو يزيئها بالجوهر ، وأن يقدم عرض ابنته العذراء في احتفال إشتار العظيم ، وأن يقدم الطعام والشراب للآلهة ، وأن يكون كريماً مضيافاً للكهنة (٩٢) .

أو لعلنا نظلمه كما سيظلمنا المستقبل بلا ريب حين يحكم علينا بالقليل الذي سوف تبقى المصادفات المحضة من آثارنا ، وتنجيه من عبث الزمان . استمع مثلاً إلى ما يقوله نبوتخد نصر الفخوز مخاطباً مردك في تذلل وخضوع :

إذا لم تكن أنت يا ربي فإذا يكون

للملك الذي تحبه وتنادى باسمه ؟

وستبارك لقبه حسب مشيئتك ،

وتهديه صراطاً مستقيماً .

أنا الأمير الطائع لك ،

باق كما صنعتني يداك .

(*) ومن أجل هذا كان تموز يسمى بالمعطر (٩٢) .

إنك أنت خالقي ،

وأنت الذي حكمتني في جيوش العباد .

وعمقتني رحمتك ، يا مولاي

بدل قوتك الرهيبة حباً ورحمة ،

وابعث في قلبي الاحترام لربوبيتك

وهبني ما ترى فيه الخير لي (٩٤) .

هذا وإن الآداب الباقية لنا من عهد البابليين لتكثر فيها الترانيم التي تفيض بالتدلل الحار الذي يحاول السامع أن يسيطر به على كبريائه ويخففه عن الأنظار . وأكثر هذه الترانيم في صورة « أناشيد توبة » وهي تهيننا لتلك المشاعر العاطفية والصور الرائعة التي نراها في « مزامير » داود . ومن يدري لعل هذه كانت مثالا احتذته تلك المزامير المتعددة النغمات :

أنا خادمك أضرع إليك وقلبي مفعم بالحسرات ،

إنك لتقبل الدعاء الحار الصادر ممن أثقلته الذنوب ،

إنك لتنظر إلى الرجل ، فيعيش ذلك الرجل

فانظر إلى بعطف حق وتقبل دعائي

ثم يقول بعد ذلك وكأنه لا يعرف أذكر ذلك الإله أم أنثى :

متى يا إلهي ؟

متى يا إلهتي ، يتجه وجهك إلى ؟

متى ، يا إلهي ، يا من أعرفه ، ولا أعرفه ، يهدأ غضب قلبك ؟

متى يا إلهتي : يا من أعرفها ولا أعرفها ، يهدأ قلبك الغضوب ؟

لقد فسد الإنسان ، وساء حكمه ؛

ومن من الأحياء كلهم يعرف شيئاً ؟

إنهم لا يعرفون أخيراً يفعلون أم شراً ،
أى إلهى لا تنبذ خادملك ،
لقد ألقى فى الوحل فخذ بيده ؛
والذنب الذى أذنبت بدله رحمة !
والظلم الذى ارتكبته ، مر الريح أن تحمله !
واخضع عن ذنوبى الكثيرة كما يخضع المرء الثياب !
أى إلهى إن ذنوبى سبعة فى سبعة ؛ فاصفح عن ذنوبى !
أى إلهتى إن ذنوبى سبعة فى سبعة ؛ فاصفحى عن ذنوبى !
اصفحى عن ذنوبى ترى ذليلاً أمامك
لعل قلبك يبتهج كما تبتهج الأم التى ولدت الأبناء ،
لعله يبتهج كما تبتهج الأم التى ولدت الأبناء ، والأب الذى
أنجب (٩٥) !

وهذه الأناشيد والمزامير كان ينشدها الكهنة تارة ، والمصلون تارة ،
وتارة ينشدها هؤلاء وأولئك معاً وهم يتهايلون ذات الشمال وذات اليمين ،
ولعل أغرب ما فى هذه الترانيم والأناشيد أنها - ككل آداب بابل الدينية -
كتبت باللغة السومرية القديمة . وكان شأن هذه اللغة فى الديانتين البابلية
والأشورية كشأن اللغة اللاتينية فى الكنيسة الكاثوليكية لا تفرق عنها فى
شئ . وكما أن الترنيمة الكاثوليكية قد تحتوى بين سطورها اللاتينية ترجمتها
بإحدى اللغات الحديثة ، فكذلك نجد لبعض الترانيم التى وصلت إلينا من
أرض الجزيرة ترجمة لها باللغة البابلية أو الأشورية بين سطور اللغة السومرية
الأصلية « الفصحى » ، على النحو الذى نشاهده فى كتب بعض تلاميذ
المدارس فى هذه الأيام . وكما إن صيغة الترانيم وطقوسها التى مهدت
لمزامير اليهود وطقوس الكنيسة الكاثوليكية ، فإن موضوعاتها تنذر بالترانيم
اليهودية والمسيحية الأولى ، وترانيم المتطهرة المحدثين ، تلك الترانيم المتشائمة
التي يسرى فيها شعور بالذنب والخطيئة . ذلك أن الشعور بالذنب ، وإن لم

يكن له شأن كبير في حياة البابليين ، تفيض به ترانيمهم ، وتسرى فيها كلها
نعمة لا تزال باقية في الطقوس السامية وما اشتق منها من ترانيم غير الساميين .
ولمى القارئ مثلاً من هذه الترانيم : « رب إن ذنوبي عظيمة ، وأفعالي
السيئة كثيرة ! . . . إني أرزخ تحت أثقال العذاب ، ولم يعد في وسعي أن
أرفع رأسي ، إني أتوجه إلى إلهي الرحيم أناديه ، وأنا أتوجه وأتألم ! . . .
رب لا ترد عنك خادمك ! » (٩٦) .

وكانت فكرة الخطيئة عند البابليين مما جعل هذه التصرفات تصدر عن
إخلاص حق شديد . ذلك أن الخطيئة لم تكن مجرد حالة معنوية من حالات
النفس ؛ بل كانت كالمرض تنشأ من سيطرة شيطان على الجسم في مقدوره
أن يهلكه . وكانت الصلاة عندهم بمثابة رقية تخرج العفريت الذي أقبل عليه
من طوائف القوى السحرية التي كان الشرق القديم يعيش فيها ويخوض
هابها . وكان البابليون يعتقدون أن هذه الشياطين المعادية للناس ترصده في
كل مكان . فقد كانت تعيش في شقوق عجيبة وتسلل إلى البيوت من خلال
أبوابها ، أو من فتحات مزاجها أو أوقابها ، وتنقض على فريستها في صورة
مرض أو جنة إذا ما ارتكب خطيئة أبعدت عنه إلى حين حماية الآلهة الخيرين .
وكان للمردة ، والأقزام ، والمقعدين ، والنساء بنوع خاص ، كان هؤلاء
كلهم في بعض الأحيان القدرة على إدخال الشياطين في أجسام من لا يحبون
وذلك بنظرة من « عين حاسدة » . وكان من المستطاع اتقاء شر هؤلاء
الشياطين إلى حد ما باستعمال التمايم والطلاسم وما إليها من الرقى والأحاجي
وكانت صورة الآلهة إذا حملها الشخص معه تكفي في الغالب لإخافة الشيطان
وإبعاده . وكان من أقوى التمايم أثراً قلاده من حجارة صغيرة تسلك في
خيط أو سلك وتعلق في العنق ؛ على أن يراعى في الحجارة أن تكون من
النوع الذي تربط الأقوال المأثورة بينه وبين الحظ الحسن ، وفي الخيط أن
يكون أسود أو أبيض أو أحمر حسب الغرض الذي يريده منه صاحبه . وكان

من أشد الخيوط أثراً الخيط الذي يغزل من عنزة لم يقربها قيس (٩٧) ، وكان من الحكمة أن يستعان فضلا عن هذه الوسائل بالرقى الحارة والطقوس السحرية لإخراج الشيطان من الجسم ، كرشه بالماء المحمول من أحد المجارى المقدسة كدجلة والفرات . وكان من المستطاع عمل صورة للشيطان ووضعها في قارب ، وإلقاؤها في الماء بعد أن تتلى عايتها صيغة خاصة وإذا أمكن صنع القرب بحيث ينكفي كان ذلك أفضل . وكان من المستطاع إقناع الشيطان بالرقية الصحيحة بترك ضحيته البشرية وتقمض جسم حيوان - كجسم طير أو خنزير أو حمل ، والأخير أكثرها شيوعاً (٩٨) .

وكانت أكثر الكتابات البابلية التي وجدت في مكتبة آشور بانيبال هي الكتابات المحتوية على صيغ سحرية لطرد الشياطين واتقاء أذاها ، والتنبؤ بالغيب . ومن الألواح التي وجدت كتب في التنجيم ، ومنها ما هو قوائم في الفأل السماوي منه والأرضي ، وإلى جانبها إرشادات شديدة تهدي إلى طريقة قراءتها ؛ ومنها بحوث في تفسير الأحلام لا تقل براعة وبعداً عن المعقول عن أرقى ما أخرجته بحوث علم النفس الحديث . ومنها إرشادات في التنبؤ بالغيب يبحث أحشاء الحيوانات أو بملاحظة مكان نقطة من الزيت وشكلها إذا أسقطت في إريق ماء (٩٩) . وكان من أساليب التنبؤ الشائعة عند البابليين ملاحظة كبد الحيوان ، وقد أخذ ذلك عنهم من جاء بعدهم من الأمم القديمة ، ذلك أن الاعتقاد السائد عند هذه الأمم هو أن الكبد مركز العقل في الحيوان والإنسان على السواء ؛ ولم يكن ملك يجرؤ على شن حرب أو الاشتباك في واقعة ، ولم يكن بابلي يجرؤ على البت في أمر من الأمور ، أو الإقدام على مشروع خطير ، إلا إذا استعان بكاهن أو عراف ليقرأ له طالعهُ بطريقة من الطرق الخفية السالفة الذكر .

وليس في الحضارات كلها حضارة أغنى في الخرافات من الحضارة البابلية ، فكل حالة من الحالات وفاة كانت أو مولداً ، كان لها عند الشعب

شرح وتأويل ، وكثيراً ما كان لها تفسير رسمي وديني يصاغ في عبارات
سحرية أو خارجة على السنن الطبيعية . وكان في كل حركة من حركات
النهرين ، وكل منظر من مناظر النجوم ، وكل حلم ، وكل عمل غير مألوف
يأتيه إنسان أو حيوان ، شاهد يكشف عن المستقبل البابلي الخبير العارف
ببواطن الأمور . فمصير الملك يمكن التنبؤ به بملاحظة حركات كلب (١٠٠) ،
كما نتنبأ نحن بطول الشتاء بالتجسس على المرموط (*) وقد تبدو خرافات
البابليين سخيفة في نظرنا ، لأنها تختلف في ظاهرها عن خرافاتنا نحن ،
والحق أنه لا تكاد توجد سخافة في الماضي إلا وهي منتشرة في مكان ما في
الوقت الحاضر . وما من شك في أن تحت كل حضارة بحراً من السحر
والتخريف والشعوذة ، ولعل هذه كلها ستظل باقية بعد أن يزول من العالم
نجاج عقولنا وتفكيرنا ،

(*) المرموط حيوان من ذوات الأربع في جرم الأرنب تقريباً ويشبهه في هيئته إلا أن
ذنبه أقصر من ذنب الأرنب . (المترجم)

الفصل الخامس

أخلاق البابليين

انفصال الدين عن الأخلاق - العهر المقدس - الحب الحر -
الزواج - الزنى - الطلاق - مركز المرأة - انحلال الأخلاق

لعل هذا الدين رغم ما فيه من عيوب ، قد رقق من طباع البابلي العادي وجعله إنساناً مؤدباً سلس القياد إلى حد ما ؛ وإلا فكيف تفسر إكرام الملوك للكهنة ؟ . ولكن يلوح أنه لم يكن له في تاريخ البلاد المتأخر أثر ما في الطبقات العليا من الشعب ، وذلك لأن « بابل العاهر » كما كان يراها ويصفها أعداؤها غير العدول كانت « مباءة للظلم » ، ومثلاً سيئاً في الانحلال والترف للعالم القديم بأجمعه . وحتى الإسكندر نفسه وهو الذي لم يكن يتورع عن الشراب حتى الموت قد هاله ما رأى من أخلاق البابليين (١٠١) .

وأهم ما يلفت نظر المراقب الأجنبي في حياة البابليين تلك العادة التي تعرفها من وصف لها في إحدى صفحات هيرودوت الذائعة الصيت : « ينبغي لكل امرأة بابلية أن تجلس في هيكل الزهرة مرة في حياتها ، وأن تضاجع رجلاً غريباً . ومنهن كثيرات يترفعن عن الاختلاط بسائر النساء ، لكبريائهن الناشئ من ثرائهن ، وهؤلاء يأتين في عربات مقفلة ويجلسن في الهيكل ومن حولهن عدد كبير من الحاشية والخدم . أما الكثرة الغالبة منهن فيتبعن للطريقة الآتية : تجلس الكثيرات منهن في هيكل الزهرة وعلى رؤوسهن تيجان من الجبال ، بين الغاديات والرائحات اللاتي لا ينقطع دخوطن وخروجهن . وتخرق جميع النساء ممرات مستقيمة متجهة في كل الجهات ، ثم يمر فيها الغرباء ليختاروا من النساء من يرتضون . فإذا جلست امرأة هذه الجلسة كان عليها ألا تعود إلى منزلها حتى يلقي أحد الغرباء قطعة من الفضة

في حجرها ويضاجعها في خارج المعبد . وعلى من يلقى القطعة الفضية أن يقول : أضرع إلى الإلهة ميلتا أن ترعاك ؛ ذلك بأن الأشوريين يطلقون على الزهرة اسم ميلتا(*) ومهما يكن من صغر القطعة الفضية فإن المرأة لا يجوز لها أن ترفضها ، فهذا الرفض يحرمه القانون لما لها في نظرهم من قداسة . وتسير المرأة وراء أول رجل يلقيها إليها ، وليس من حقها أن ترفضه آياً كان . فإذا ما ضاجعته وتحملت مما عليها من واجب للإلهة ، عادت إلى منزلها . ومهما بذلت لها من المال بعدئذ لم يكن في وسعك أن تنالها . ومن كانت من النساء ذات جمال وتناسب في الأعضاء ، لا تلبث أن تعود إلى دارها ، أما المشوهات فيبقين في الهيكل زمناً طويلاً ، وذلك لعجزهن عن الوفاء بما يفرضه عليهن القانون ، ومنهن من ينتظرن ثلاث سنين أو أربعاً(١٠٢) .

ترى ماذا كان منشأ هذه السنة العجيبة ؟ فهل كانت بقية من بقايا الشيوعية الجنسية ، أي رخصة يمنح بها عريس المستقبل « حق الليلة الأولى » للمجتمع الممثل في المواطن العارض غير المعروف(١٠٣) ؟ أو هل كان منشؤها نخوف العريس من ارتكاب جريمة سفك الدماء التي تحرمها الشرائع(١٠٤) ؟ أو هل كانت استعداداً ضمناً للزوج شبيهاً بالسنة التي لا يزال يسير عليها بعض القبائل في أستراليا إلى هذه الأيام(١٠٥) ؟ أو أنها لم تكن أكثر من قربان يقرب للآلهة - فتقدم لها باكورة الفاكهة(١٠٦) ؟ من يدري ؟

ولم تكن هذه النساء عاهرات بطبيعة الحال . لكن عاهرات من أصناف مختلفة كن يسكن في أرباض الهيكل ويمارسن حرفتهن فيها ، ومنهن من كن يجمعن من عملهن الأموال الطائلة ، وكانت عاهرات الهياكل كثيرات في غربي آسية . تجدهن عند بني إسرائيل(١٠٧) ، وفي فريجيا ، وفينيقية ، وسوريا

(*) لقد كان اليونان يطلقون اسم الأشوريين على البابليين على السواء . وكانت «ميلتا» صورة أخرى من صور إشتار .

وغيرها من الأقطار . وكانت البنات في ليديا وقبرص يحصلن على بائنة زواجهن بهذه الطريقة نفسها (١٠٨) ، وظلت « الدعارة المقدسة » عادة متبعة في بلاد بابل حتى ألغاهما قنسطنطين (حوالى عام ٣٢٥ ق . م) (١٠٩) . وكان جانبها عهر مدنى منتشر في حانات الشراب التى يديرها النساء (١١٠) .

وكان يسمح للبابليين في العادة بقسط كبير من العلاقات الجنسية قبل الزواج ، ولم يكن يُضن على الرجال والنساء أن يتصلوا اتصالاً غير مرخص به « بزيجات تجريبية » تنهى متى شاء أحد الطرفين أن ينهيا ، ولكن المرأة في هذه الحالات كان من واجبها أن تلبس زيتونة - من حجر أو طين هروقي - دلالة على أنها محظية (١١١) . وتدل بعض الألواح على أن للبابليين كانوا ينشئون القصائد الغزلية ويغنون الأغاني الغرامية ، ولكن هذه للقصائد والأغاني لم يبق منها إلا سطر هنا وسطر هناك ، كانت تسهل به القصيدة أو الأغنية كقولهم : « إن حبيبي من نور » أو « إن قاي مليء بالمرح والغناء » (١١٢) ولدينا خطاب يرجع تاريخه إلى عام ٢١٠٠ ق . م ، وتشبه نغمته نغمة رسائل نابليون الأولى إلى جوزفين (٥) : « إلى بيبي . . . لعل شمش ومردك يهبانك صحة أبدية . . . لقد أرسلت (أستفسر) عن صحتك ، فخبريني كيف حالك ، لقد وصلت إلى بابل ، ولكنى لا أراك ، إنى فى أشد الحزن » (١١٣)

وكان الآباء هم الذين يهبون الزواج الشرعى لأبنائهم ، وكان الطرفان يقرانه يتبادل الهدايا ، ولعل هذه العادة كانت أثراً من نظام قديم هو نظام الزواج بالبيع والشراء . فكان الخطيب يتقدم إلى والد العروس بهدية قيمة ، ولكن الوالد كان ينتظر منه أن يهب ابنته بائنة أعظم قلداً من الهدية (١١٤) ، حتى لقد كان يصعب على المرء أن يقول أيهما المشتري المرأة أم الرجل ؟ على أن بغض

(٥) انظر ترجمة بعض هذه الرسائل (وخاصة الرسالة رقم ٢) في الجزء الثانى من « أشهر الرسائل العالمية » المترجم .

الزيجات كانت بيعاً صريحاً ، من ذلك أن شمشريز حصل على عشرة شواقل (٥ ريالاً) ثمناً لابنته (١١٥) ، وإذا جاز لنا أن نصدق أبا التاريخ « فإن من كانت لهم بنات في سن الزواج يأتون بهن مرة في كل عام إلى مكان يجتمع فيه حولهن عدد كبير من الرجال ، ثم يصفهن دلال عام ويبيعهن جميعاً واحدة في إثر وعلى أذى أولاً احدة ، فينأجلهن ، وبعد أن يقبض فيها ثمناً عالياً ينادى على من تليها في الجمال . ولكنه لم يكن يبيعهن إلا بشرط أن يتزوجن المشترون ... وهذه العادة المستحبة لم يعد لها الآن بقاء » (١١٦) .

ويلوح أن الزواج في بابل ، رغم هذه الأساليب الغربية لم يكن يقل إخلاصاً واقتصاراً على واحدة عنه في العالم المسيحي في هذه الأيام . وكانت الحرية المباحة للأفراد قبل الزواج يتبعها إرغام شديد على الاستمسك بالوفاء الزوجي بعده ، وكان القانون ينص على إغراق الزوج الزانية ومن زنت معه إلا إذا أشفق الزوج على زوجته فأثر أن يستبدل بهذه العقوبة إخراجها إلى الطريق عارية إلا من القليل الذي لا يكاد يستر شيئاً من جسمها (١١٧) . وقد بزحموراني قبصر من هذه الناحية فقال في إحدى مواد قانونه : « إذا أشار الناس بإصبعهم إلى زوجة رجل لعلاقتها برجل غيره ، ولم تضبط وهي تضاجعه ، وجب أن تلقى بنفسها في النهر حفظاً لشرف زوجها » (١١٨) . ولعل الذي كان يهدف إليه القانون بهذه العقوبة هو منع أحاديث الإفك ، وكان في وسع الرجل أن يطلق زوجته ، ولا يتطلب منه هذا أكثر من رد بائنتها إليها وقوله لها : « لست زوجتي » ، أما إذا قالت هي له : « لست زوجي » ، فقد وجب قتلها غرقاً (١١٩) . وكان عقم الزوجة ، وزناها ، وعدم اتفاقها مع زوجها ، وسوء تدبيرها منزلها ، كانت هذه في حكم القانون مما يجيز طلاقها (١٢٠) . وفي ذلك يقول القانون : « إذا لم تكن سيدة حريصة على أداء واجبها ، بل كانت دوارة غير مستقرة في منزلها ، مهمامة لشئون بيتها ، مستخفة بأطفالها ، وجب أن تلقى في الماء » (١٢١) ، وفي مقابل هذه

القسوة غير المعقولة المنصوص عليها في القانون ، كان للمرأة من الوجهة العملية أن تفارق زوجها ، وإن لم يكن من حقها أن تطلقه ، إذا أثبتت قسوته عليها مع إخلاصها له ؛ وكان في وسعها في هذه الحال وأمثالها أن تعود إلى أهلها وأن تأخذ معها بائنتها وماعسى أن تكون قد حصلت عليه لنفسها بعدئذ من المتاع (١٢٢) ، (ولم تستمتع نساء إنجلترا نفسها بهذه الحقوق إلا في أواخر القرن التاسع عشر) . وإذا غاب الزوج عن زوجته في عمل أو حرب زمنياً ما ، ولم يترك لها ما تعيش منه ، كان لها أن تعيش مع رجل آخر ، دون أن يحول ذلك من الوجهة القانونية بينها وبين انضمامها مرة أخرى إلى زوجها بعد عودته من غيبته (١٢٣) .

وفي وسعنا أن نقول بوجه عام إن مركز المرأة في بابل كان أقل منه في مصر وفي رومة ، ولكنه مع ذلك لم يكن أقل من مركزها عند اليونان الأقدمين أو عند الأوربيين في العصور الوسطى . وكان لا بد لها لكي تؤدي أعمالها الكثيرة - من ولادة الأبناء وتربيتهم ، ونقل الماء من النهر أو الآبار العامة ، وطحن الحبوب ، والطهو ، وغزل الخيوط ونسجها ، وتنظيف دارها - كان لا بد لها لكي تؤدي هذه الأعمال أن تكون حرة في غدوها ورواحها بين الناس لا تكاد تفرق من هذه الناحية عن الرجل في شيء (١٢٤) . وكان من حقها أن تمتلك الثروة وتستمتع بدخلها ، وتتصرف فيها بالبيع والشراء ، وأن ترث وتورث (١٢٥) . ومن النساء من كانت لهن حوانيت ، يتجرن فيها ، بل إن منهن من كنّ كاتبات ، وفي هذا دليل على أن البنات كن يتعلمن كالصبيان (١٢٦) ، غير أن التقاليد السامية التي تمنح أكبر ذكور الأسرة سلطة لا تكاد تقف عند حد كانت تحول دون ما عساه أن يكون باقياً في أرض الجزيرة من أزمنة ما قبل التاريخ من نزعة لتغليب سلطان الأم . وكان من العادات المتبعة عند الطبقات العليا عادة - ولعالمها هي التي أدت إلى تحجب النساء عند المسلمين والهنود - أن يكون للنساء جناح خاص أو أجنحة خاصة في المنزل ؛ وكنّ إذا

خرجن صهبن رقباء من الحصيان والحلم (١٣٧) ، أما الطبقات السفلى فلم تكن
نساؤها أكثر من آلات لصنع الأطفال ، وإذا لم تكن هن بائنات كانت
مكائهن لا تكاد تفرق عن مكائة الإمام (١٣٨) . وتشير عبادة إشتار إلى أن المرأة
والأمومة كان لهما قسط من التبجيل في بلاد بابل ، كما تشير عبادة مريم العذراء
في العصور الوسطى إلى ما كان لها من التبجيل وقتئذ ، ولكننا إذا أخذنا بقول
هيرودوت إن البابليين إذا حوصروا « كانوا يخنقون زوجاتهم لكيلا يستهلكن
ما عندهم من الطعام » (١٣٩) ، لا نرى أن البابليين كانت لديهم كثير من صفات
الشهامة والفروسية التي كانت لدى الأوربيين في تلك العصور .

لذلك ترانا نجد بعض العذر للمصريين إذا وصفوا البابليين بأنهم قوم
لم يصلوا إلى درجة كبيرة في الحضارة . والحق أننا لا نجد عندهم ما تشهد
به آداب المصريين وفنونهم من رقة أخلاقهم ومشاعرهم . ولما أن وصلت
هذه الرقة إلى البابليين وصلت إليهم تحت ستار الانحلال الخنث : فكان
للشبان يصبغون شعرهم ويعقصونه ، ويعطرون أجسامهم ، ويحمررون
خدودهم ، ويزينون أنفسهم بالعقود والأساور ، والأقراط ، والقلائد .
ولما فتح الفرس بلادهم وقضوا بذلك على عزتهم النفسية ، تحرروا أيضاً
من جميع القيود الخلقية ، وسرت عادات العاهرات إلى جميع الأوساط ،
وأضحت نساء الأسر الكبيرة يرين أن إظهار محاسنهن أيا كانت ليستمتع
بها أعظم استمتاع أكبر عدد مستطاع ، أصبحن لا يرين في هذا شيئاً
أكثر من مجاملة عادية (١٤٠) . وإذا جاز لنا أن نصدق هيرودوت فإن
« كل رجل من عامة الشعب إذا عضه الفقر ، عرض بناته للدعارة طلباً
للمال » (١٤١) . وكتب كونتس كورتيس عام ٤٢ ب . م يقول : « ليس ثمة
أغرب من أخلاق هذه المدينة . فلنا نجد في أي مكان آخر ما نجده فيها من
تفريط كل شيء على خير وجه لإشباع الملذات الشهوانية » (١٤٢) . لقد فسدت
الأخلاق وانحلت حين أثرت الهياكل ، وانهمك أهل بابل في ملذاتهم
فرضوا أن تخضع مدينتهم للكاشيين والأشوريين والفرس واليونان .

الفصل السادس

الكتاب والأدب

الكتابة المسماة - حل رموزها - اللغة - الأدب - ملحمة جلجميش

ترى هل خُلدت هذه الحياة ، حياة الشهوات والتقوى والتجارة ، في الأدب أو الفن تخليداً رائعاً نبيلاً ؟ لعل هذا قد كان ، لأننا لا نستطيع أن نحكم على مدينة من شذرات متفرقة من حطام بابل قذف بها بحر الزمان . إن هذه الشذرات تتصل معظمها بشئون الصلاة والسحر والتجارة ، وليس ما خلفته من تراث أدبي بالشىء الكثير إذا قيس إلى ما تركته مصر وفلسطين ، وكانت في هذه القلة شبيهة بأشور وفارس . ولسنا ندرى أكان هذا من أثر الظروف والمصادفات أم كان من أثر فقرها الثقافي . أما فضلها على العالم ففي ميدان التجارة وفي القمانون .

لكن الكتابة رغم هذا لم يكونوا يقلون في مدينة بابل التي كان يسكنها خليط من جميع الأجناس عنهم في منف أو طيبة . ذلك أن فن الكتابة كان لا يزال في بداية عهده فنّاً ينال به من يجيده مركزاً عظيماً في المجتمع ، فقد كان الطريق الموصل إلى المناصب الحكومية والكهنوتية ، ولم يكن صاحبه يغفل قط عن الإشادة بفضله فيما يرويه من أعماله ، وكان من عادة الكاتب أن ينقش ما يفيد هذا على خاتمه الأسطواني (١٢٣) كما كان العلماء والمتعلمون في العالم المسيحي من وقت قريب يذكرون مؤهلاتهم العلمية على بطاقتهم . وكان البابليون يكتبون بالخط المسماة على ألواح من الطين الرطب بقلم ذي طرف شبيه بالمنشور الثلاثي أو الإسفين . فإذا امتلأ اللوح كتابة جففوه أو حرقوه ، فكان بذلك مخطوطاً غريباً يطول البقاء . وإذا كان المكتوب رسالة نثر عليها التراب الناعم ، ووضعت في مظروف

من الطين ، وبصمت بخاتم مرسلها الأسطوانى ، وكانت الألواح الطينية المحفوظة في جرار مصنفه ومرتبة على رفوف تملأ عدداً كبيراً من المكتبات في هياكل الدولة البابلية وقصورها ، ولقد ضاعت هذه المكتبات ، ولكن واحدة من أعظمها وهى مكتبة بورتيا قد نسخت وحفظت في مكتبة آشور بانيبال . وكانت ألواحها البالغ عددها ٣٠٠٠٠ لوح أهم مصدر استقينا منه معلوماتنا عن الحياة البابلية .

ولقد حيرت الكتابة البابلية العلماء فظلوا مئات السنين عاجزين عن تحليل رموزها ، وكان نجاحهم في حلها آخر الأمر عملاً من أجل الأعمال في تاريخ العلم . وتفصيل ذلك أن جورج جروتفند أستاذ اللغة اليونانية في جامعة جوتنجن أبلغ المجمع العلمى في تلك المدينة عام ١٨٠٢ أنه ظل عدة سنين يواصل البحث في بعض مخطوطات مسماوية وصلت إليه من بلاد الفرس القديمة ، وأنه استطاع آخر الأمر أن يتعرف على ثمانية من الإثني والأربعين حرفاً المستعملة في هذه النقوش ، وأنه ميز ثلاثة من أسماء الملوك المدونة فيها . وبقيت الحال كذلك ، أو ما يقرب من ذلك ، حتى عام ١٨٣٥ حين استطاع هنرى رولنسن أحد موظفى السلك السياسى البريطانيين في إيران ، على غير علم منه بما توصل إليه جروتفند ، أن يقرأ ثلاثة أسماء هى هستبس ، ودارا ، وحشيارشاي (اكرزكس) في نقش مكتوب بالخط الفارسى القديم وهو خط مسماوى مشتق من الكتابة البابلية ، وأمكنه بفضل هذه الأسماء أن يقرأ الوثيقة كلها في آخر الأمر . لكن هذه الكتابة وإن كانت مشتقة من الكتابة البابلية لم تكن هى البابلية نفسها ، وقد بقى على رولنسن أن يعثر على حجر رشيد بابلى كما عثر شمپليون على حجر رشيد مصر ، أى على نص واحد باللغتين الفارسية القديمة والبابلية . وهذا ما عثر عليه في مكان يعلو على سطح الأرض نحو ثلاثمائة قدم . وكان هذا النقش على صخرة يتعذر الوصول إليها عند بهستون في جبال ميديا ، حيث أمر دارا الأول الحفارين أن يسجلوا حروبه وانتصاراته بثلاث لغات : الفارسية القديمة ، والآشورية ، والبابلية . وظل

رولنسن يوماً بعد يوم يرقى هذه الصخرة معرضاً بذلك حياته لأشد الأخطار ،
وكثيراً ما كان يشده نفسه بحبل وهو ينسخ كل حرف من حروفها بعناية بالغة ،
حتى لقد كان أحياناً يطبع النقش كله على عجينة لينة . وبعد جهد دام اثنتي
عشرة سنة تاممته نجح في ترجمة النصين البابلي والأشوري (١٨٤٧) ،
وأرادت الجمعية الآسيوية الملكية أن تثبت مما وصل إليه رولنسن وغيره
من العلماء في هذه الوثيقة وفي غيرها من الوثائق فأرسلت إلى أربعة من
علماء الآثار الآشورية أربع صور من وثيقة مسمارية لم تكن قد نشرت
وقتئذ ، وطلبت إلى كل منهم على انفراد أن يترجمها مستقلاً عن الثلاثة
الآخرين دون أن يتصل بهم أو يرسلهم . فلما جاءت الردود وجدت
كلها متفقة بعضها مع بعض اتفاقاً يكاد يكون تاماً . وبفضل هذا الكفاح
العلمي المنقطع النظر اتسعت دائرة البحوث التاريخية بما دخل فيها من
علم بهذه الحضارة (١٨٤٣) الجديدة .

واللغة البابلية القديمة لغة سامية نشأت من تطور لغتي سومر وأكّد ،
وكانت تكتب بحروف سومرية الأصل ، ولكن مفرداتها اختلفت
عنها على مر الأيام (كما اختلفت اللغة الفرنسية عن اللاتينية) ، حتى
استلزم هذا الاختلاف بين اللغتين السومرية والبابلية وضع معاجم وقواعد
في النحو والصرف يستعين بها العلماء والكهنة من الشبان على تفهم
اللغة السومرية « الفصحى » والكتابات السومرية الكهنوتية . ومن أجل
هذا نرى نحو ربع الألواح التي عثر عليها المنقبون في المكتبة الملكية بنيوى
معاجم في اللغات السومرية والبابلية والآشورية وكتباً في نحوها وصرفها ،
وتقول الروايات التاريخية إن هذه المعاجم قد وضعت من عهد موغل في القدم
هو عهد سرجون ملك أكّد . ألما أقدم عهد الدراسات العلمية ! والعلامات
في اللغة البابلية كالعلامات في اللغة السومرية لا تدل على حروف وإنما تدل
على مقاطع . ذلك أن البابليين لم يضعوا لهم حروفاً هجائية مستقلة بل ظلوا

طوال عهدهم قانعين بطائفة من المقاطع يرمزون لها بنحو ثلثمائة علامة من العلامات ؛ وقد كان حفظ هذه الرموز المقطعية عن ظهر قلب ودراسة قواعد الحساب والتعاليم الدينية المنهج المقرر في مدارس الهياكل ، حيث كان الكهنة يلقنون الشباب ما هو خليق بالدرس والمعرفة . وقد كشفت بعض أعمال الخفر عن حجرة دراسية قديمة وجدت على أرضها ألواح طينية لبنين وبنات كتبت فيها حكم أخلاقية تحت على الفضيلة قبل مولد المسيح بنحو ألفي عام ، كأن كارثة مفاجئة نكاد نحن أن نحمد الله على وقوعها دهمت التلاميذ ، فقطعت عليهم دروسهم ، وحفظت لنا ألواحهم ، ومصائب قوم عند قوم فوائد (١٣٥) .

وكان البابليون ، كالفينيقين ، ينظرون إلى الكتابة على أنها مجرد وسيلة لتيسير الأعمال التجارية ، ولذلك لم يضيعوا كثيراً من طينهم في كتابة الأدب . ونجد في ألواحهم قصصاً منظومة على لسان الحيوان - وهي نوع من أنواع لا حصر لها من القصص الخرافية - كما نجد فيها ترانيم دقيقة الوزن ، مقسمة إلى سطور وإلى مقطوعات منفصول بعضها عن بعض (١٣٦) ، لكننا لا نجد من الشعر غير الديني الذي يصف شئون الناس العادية إلا القليل الذي لا يستحق الذكر ، ونرى في المراسم الدينية ما يبشر بنشأة المسرحيات ، وإن لم تصل إلى مسرحيات بالفعل . ونجد عندهم قناطر مقنطرة من كتب التاريخ . ذلك أن المؤرخين الرسميين كانوا يسجلون تقي الملوك وفتوحهم ، وما يصيب كل هيكل من الهياكل من عوادي الدهر ، وما يقع في كل مدينة من أحداث هامة ويقص علينا بروسس أشهر المؤرخين البابليين وأنبهم ذكراً ، في اطمئنان العالم الوثائق من علمه ، تفاصيل وافية عن خلق العالم وتاريخ الإنسان في عهده الأول . ويقول إن الله قد اختار أول ملك من ملوك بابل ليتولى حكمها ، وإنه حكمها ستة وثلاثين ألف عام . كما يقدر في دقة ، جديرة في حد ذاتها بالثناء . وباعتدال ليس فيه ما يقدّر غيره من إسراف ، الزمن الذي مضى من خلق الأرض إلى أيام الطوفان

الأعظم بمسماثة وواحد وتسعين ألفاً ومائتين من السفين (١٧٣) .
ومن أروع الآثار الأدبية التي خلفتها أرض الجزيرة اثنا عشر لوحاً
محطماً وجدت في مكتبة آشور بانپال ، وهي الآن في المتحف البريطاني . وقد
كتبت على هذه الألواح **ملحمة جلجميش** الذائعة الصيت ، وتتألف من طائفة
من القصص غير الوثيقة الاتصال ضمت بعضها إلى بعض في عهود مختلفة
يرجع بعضها إلى أيام السومريين أي إلى ما قبل المسيح بثلاثة آلاف عام . ومن
هذه القصص النص البابي لقصة الطوفان . وكان جلجميش بطل القصة السالفة
الذكر حاكماً أسطوريا لأروك أو إرك وهو من نسل شمش - نيشتين الذي
نجا من الطوفان ولم يمت قط . ويدخل جلجميش في القصة في صورة مركبة
من صورتي أونيس وشمشون ، فهو طويل القامة ، ضخم الجسم ، مفتول
العضلات ، جرىء مقدام ، جميل يفتن الناس بجماله .

ثلاثه إله ،

وثلثه آدمي ،

لا يماثله أحد في صورة جسمه . . . ،

يرى جميع الأشياء ، ولو كانت في أطراف العالم ،

كابد كل شيء ، وعرف كل شيء ،

واطلع على جميع الأسرار ،

واخترق ستار الحكمة الذي يحجب كل شيء ،

ورأى ما كان خافياً ،

وكشف الخطاء عما كان مغطى ،

وجاء بأخبار الأيام التي كانت قبل الطوفان ،

وسار في طريق بعيد طويل ،

كابد فيه المشاق والآلام ،

ثم كتب على لوح حجري كل ما قام به من الأعمال (١٣٨) .

ويشكوه الآباء إلى إشتار قائلين إنه يخرج أبناءهم من دورهم ليكدحوا في « بناء الأسوار بالنهار وبالليل » ؛ ويقول الأزواج إنه « لا يترك زوجة لزوجها ، ولا عذراء واحدة لأمها » ، وتذهب إشتار إلى أورو عرابة جلعميش ترجوها أن تخلق ابناً آخر مساوياً لجلعميش وقادراً على أن يشغله في نزع بينهما ، حتى يستريح بال الأزواج في أروك ويأمنوا شره . وتعجن أورو قطعة من الطين ، وتبصق عليها ، وتصور منها إنحدر ، وهو رجل له بأس الخنزير ، ولبدة الأسد ، وسرعة الطير . ولا يعبأ إنجيدو ههنا بصحبة الآدميين ، بل يعتزهم ويعيش مع الحيوانات ، « يرعى الأعشاب مع الأطباء ، ويلعب مع مخلوقات البحار ، ويروى ظمأه مع وحوش الحقول » . ويحاول أحد الصيادين أن يقتنصه بالشباك والفخاخ ولكنه يعجز عن اقتناصه ، فيذهب الصياد إلى جلعميش ويرجوه أن يعيره كاهنة توقع إنجيدو في شرك حبها . فيقول له جلعميش : « اذهب أيها الصياد ، وخذ لك كاهنة ، فإذا جاءت الوحوش إلى مورد الماء لتستقي فلتكشف عن جمالها ، فإذا رآها انفضت من حوله الوحوش » .

وينطلق الصياد والكاهنة ريلتقيان بإنجيدو

« ها هوذا ، أيها المرأة !

فحلى أزرارك ،

أسفري عن مفاتنك ،

حتى ينال كفايته منك !

لا تحجمي ، وأجيبه إلى ما يشتهي !

فإذا رآك فسوف يقرب منك .

وافتحى ثوبك ، حتى يرقد عليك !

وأثيرى شهوته ، كما تفعل النساء ،

وإذن فسيصبح غريباً عن وحوشه البرية ؛

• هي التي درجت معه فوق السهوب ،

وسيلتصق صدره بصدرك .

وحلت الكاهنة أزرارها

وكشفت عن مفاتها ،

حتى ينال كفايته منها ،

ولم تحجم ، وأخذت شهوته ،

وفتحت ثوبها لكي يرقد عليها •

وأثارت نشوته كما تفعل النساء ،

والتصق صدره بصدرها •

فنسى إنجيدو أين ولد (١٣٩) .

ويبقى إنجيدو مع الكاهنة ستة أيام وسبع ليال ، يحب فيها السعادة حباً ؛

حتى إذا مل هذه اللذة استيقظ فرأى أصدقاءه من الحيوانات قد فارقت

فيغشى عليه من شدة الحزن ، فتزجره الكاهنة بقولها : « أنت يا من بلغت

عظمة الآلهة ، كيف يطيب لك العيش بين وحوش الحقول ؟ تعال آخذك

إلى أروك حيث يعيش جلجميش الذي لا يدانيه أحد في جبروته .

ووقع إنجيدو في شرك الكاهنة التي خدعته بثنائها عليه ، فسار وراءها إلى

أروك وهو يقول : « أريني المكان الذي فيه جلجميش ، أقاتله وأظهر له

قوتي » ، فتسر بذلك الآلهة والأزواج ؛ ولكن جلجميش ينتصر عليه بقوته

أول الأمر ثم يعطفه وشفقته عليه بعدئذ ، ويصبح الاثنان صديقين وفيين ؛

ويسيران جنباً إلى جنب يحميان أروك من عيلام ، ويعودان ظافرين بعد

أن يقوموا بأجل الأعمال . « ونخلع جلجميش عدته الحربية ، ولبس ثيابه

البيض ، وزين نفسه بالشارة الملكية ولبس التاج » . وسرعان ما تقع إشتار

الشرهة في حبه وترنو إليه بعينها الكبيرتين ، وتقول :

« تعالیٰ یا جلجمیش ، وکن لی زوجاً ! وقدم لی حبك هديه ، ستكون أنت زوجی ، وأكون زوجتك ، وسأضعك فی عربة من اللآزورد والذهب ، لها ذوالیب ذهبية مطعمة بالعقیق ، وستجرها لك آساد عظيمة ، وستدخل بیتنا ومن حولك البخور المنطلق من خشب السدر . . . وستحتضن قدميك كل الأراضی المجاورة للبحر وسيخر الملوك كلهم سجداً لك ویأتون بشمرات الجبال والسهول جزية یؤدونها لك عن ید . »

ویرفض جلجمیش طلبها ویذكرها بما جنته علی عشاقها الكثيرین ومنهم تموز ، وباشق ، وحصان ، وبستانی ، وأسد ، وینادیها قائلاً : « إنك تجبینی الآن ، ولكنك ستضر بینتی بعد كما ضربت هؤلاء جميعاً . » وتطلب إشتار وهي غضبی إلى أنو الإله الأعظم أن یخلق ریمًا مفترساً یقتل جلجمیش . ویرفض أنو طلبها ویزجرها بقوله : « ألا تستطيعین السكوت وقد أذكرك جلجمیش بغدرک وفضائحك ؟ » وتندره بأنها سوف تعطل كل ما فی الكون من غرائز الحب والشهوة ، حتی یهلك كل شیء حی . ویخضع أنو لإرادتها ، ویخلق الریم المفترس ، ولكن جلجمیش یتغلب علی هذا الوحش بمعونة إنجیدو ، وتصب إشتار علی البطل لعنتها فیاقی إنجیدو بأحد أطراف الریم فی وجهها . ویتهج ذلك جلجمیش ویته عجباً ، ولكن إشتار تصرعه وهو فی عنوان مجده ، وذلك بأن تصیب إنجیدو بداء عضال .

ویحزن جلجمیش ویبکی صديقه الذي كان أحب إليه من النساء ، ویفكر فی أسرار الموت ، وهل ثمة وسيلة للفرار من هذا المصیر المحتوم ؟ إن رجلاً واحداً قد نجا منه وهو شمش - نیشتم فهو إذن يعرف سر الخلود . ویقرر جلجمیش أن ینهب للبحث عن شمش - نیشتم ، ولو اضطره هذا البحث إلى الطواف فی العالم كله . ویجتاز الطريق الموصل إليه جبلاً یحرسه ماردان جباران یلمس رأساهما قبة السماء ویصل ثدياهما إلى الجحیم . ولكنهما یأذنان له بالمرور ، ویسیر اثنی

عشر ميلاً في نفق مظلم ، يخرج بعده إلى شاطئ بحر عظيم ، ويرى من وراء مائه عرش سبيتو العذراء إلهة البحار . وينادىها أن تعينه على عبور الماء ، ويقول : « إذا لم أفلح في هذا ، فسألقى بنفسى على الأرض وأقضى نحبي » . وتشفق عليه سبيتو وتسمح له أن يجتاز البحر في أربعين يوماً كلها عواصف وزعازع حتى يصل إلى الجزيرة السعيدة التي يسكن فيها شمس - نيشتم المخلد أبد الدهر . ويتوسل إليه جلعميش أن يفضى إليه بسر الخلود ويرد عليه شمس - نيشتم بأن يقص عليه قصة الطوفان ، وكيف ندمت الآلهة على ما سبته في سورة جنونها من دمار ، وكيف أبتت عليه هو وزوجه فخلدتهما لأنهما أنجيا النوع الإنساني من الفناء . ويقدم إلى جلعميش نبتة تجدد ثمارها شباب من يأكلها ، ويبدأ جلعميش رحلته الطويلة إلى بلده مغتبطاً سعيداً ولكنه يقف في طريقه ليستحم ، وبينما هو يفعل هذا إذ تخرج إليه أفعى وتسرق النبتة (*) .

ويصل جلعميش إلى أروك يائساً حزيناً ، ويطوف بالهياكل ميكلًا بعد هيكل يصلى ويدعو الآلهة أن ترد الحياة إلى إنجيدو ولولم تظل حياته إلا ريثما يكلمه كلمة واحدة . ويظهر إنجيدو ويسأله جلعميش عن حال الموتى ، فيرد عليه إنجيدو بقوله : « لا أستطيع أن أجيبك لأنى لو فتحت الأرض أمامك ، ولو أخبرتك بما رأيت لقضيت من شدة الهول ، ولغشى عليك » . ولكن جلعميش رمز الفلسفة ، وهى تلك البلاهة الجريئة ، يصر على طلب الحقيقة ويقول : « سيقضى على الرعب ، وسيغشى على » ، ولكن خبرنى عنه ، ويصف له إنجيدو أهوال الجحيم ، وبهذه النغمة الحزينة تختتم الملحمة الناقصة (١٠٤) .

(*) كان كثيرون من الأقدمين يعبدون الأفعى ويتخذونها رمزاً للخلود ، وذلك لقدرتها الظاهرة على الفرار من الموت بتبديل جلدها .

الفصل السابع

الفنانون

الفنون الصغرى - الموسيقى - التصوير - النحت - النقش القليل البروز - العهارة

تكاد تكون قصة جلعيميش المثل الوحيد الذى نستطيع أن نحكم به على أدب البابليين . أما الفنون الصغرى فإن ما أبتت عليه المصادفات من آثارها يدل أنهم أوتوا قسطاً موفوراً من الإحساس بالجمال ، وإن لم يؤثروا روح الإبداع العميقة ، وعلى أن هذا الإحساس لم يقض عليه كله انهماكهم فى الأعمال التجارية ، وفى الملاذ الجسمية ، وفى تقواهم التى أرادوا أن يعرضوا بها هذه الناحية من حياتهم . وإن قطع القرמיד التى طلبت وصقلت بأعظم عناية ، والحجارة البراقة ، وأدوات البرنز الدقيقة الصنع ، والحديد ، والفضة ، والذهب ، والتطريز الجميل ، والسجاجيد للوثيرة ، والثياب ذات الصبغات الجميلة ، والأقمشة المزركشة المعلقة على الجدران ، والمناضد المرتكزة على القواعد والسرر والكراسى (١٤١) ، إن هذه المخلفات كلها لتخلع على الحضارة البابلية ثوباً قشيباً من الجمال والرونق وإن لم تخلع عليها كثيراً من القيمة أو الجلال . والحلى التى عثر عليها كثيرة ، ولكنها تنقصها الدقة الفنية التى نشاهدها فى حلى المصريين الأقدمين ، وكان أكبر ما يقصد بها أن تعرض المعدن الأصفر أكثر مما تعرض الفن الجميل ، ويظن صانعوها أن من جمال الفن أن تصنع تماثيل كاملة من الذهب (١٤٢) . وكان لدى البابليين آلات طرب كثيرة - ناي ، وقانون ، وقيثار ، ومزامير القرب ، وطبول وقرون ، ومزامير من الغاب ، وأبواق ، وصنوج ودفوف . وكان لهم فرق موسيقية ومغنون يعزفون ويغنون فرادى ومجتمعين فى المياكل والقصور وفى حفلات الأثرياء (١٤٣) .



شکل (٢٨) « آسد بابل » نقش ملون فی متحف برلین

وكان التصوير بالألوان من الفنون الثانوية عند البابليين ، يستخدمونه في
تزيين الجدران والتماثيل ، ولم يحاولوا قط أن يجعلوا منه فناً مستقلاً بذاته (١٤٤) .
ولسنا نجد في خرائب البابليين تلك النقوش الملونة التي تزدان بها قبور
المصريين ، أو تلك المظلمات التي تجمل قصور كريت ، كذلك لم يرق فن
النحت عند البابليين ، ويلوح أن هذا الفن قد جمد وقضى عليه قبل أن يكتمل
نموه ما ورثته بابل من القواعد التي جرى بها العرف عند السومريين ،
وأرغمها الكهنة على اتباعها والجرى على سننها : فكل الوجوه المرسومة
وجه واحد ، ولكن الملوك أجسام ممثلة قوية العضلات ، والأسرى كلهم
كان تماثيلهم صبت في قالب واحد ، ولم يبق من تماثيل البابليين إلا القليل ،
ولم يكن ثمة ما يوجب هذه القلة . والنقوش القليلة اليوم أحسن حالا من
التماثيل ولكنها هي الأخرى فجأة خشنة يتحكم فيها العرف والتقاليد ؛ وثمة
فارق كبير بينها وبين نقوش المصريين القوية التي حفرها من قبلهم بألف عام .
ولا تصل هذه النقوش إلى غايتها إلا حين تمثل الحيوانات وهي هادئة ساكنة
مهيبة في أرياضها الطبيعية ، أو مهتاجة أثارها قسوة الإنسان (١٤٥) .

وليس في وسعنا الآن أن نحكم حكماً عادلاً على فن العمارة البابلي لأننا لا نكاد
نجد شيئاً من مخلفات هذا الفن يرتفع فوق الزمان أكثر من بضع أقدام ، وليس
بين آثارهم صور لعمايرهم منحوتة أو مرسومة ، يستدل منها بوضوح على أشكال
القصور والهياكل وهندسة بنائها . وكانت البيوت تبنى من الطين ، أو من الآجر
إن كانت للأغنياء منهم ، وقلما كانت لها نوافذ ؛ ولم تكن أبوابها تفتح على
الشوارع الضيقة بل كانت تفتح على فناء داخلي مظلل من الشمس . وتصف
الأخبار المتواترة بيوت الطبقات الراقية بأنها مكونة من ثلاث طبقات
أو أربع (١٤٦) . أما الهياكل فكانت تقوم على قواعد في مستوى سقف البيوت
التي كانت تلك الهياكل تسيطر على حياة أهلها . وكان الهيكل في الغالب بناء
ضخماً من القرميد مشيداً كالبيوت حول فناء تقام فيه معظم الحفلات الدينية .

ويقوم إلى جوار المعبد في أغلب الحالات برج عال يسمى بلغتهم زجورات (ومعناه « مكان عال ») يتكون من طبقات مكعبة الشكل بعضها فوق بعض ، وتتناقص كلما علت ، ويحيط بها سلم من خارجها . وكانت تستخدم إما في الأغراض الدينية - فقد كانت مزاراً عالياً للإله صاحب الهيكل ، - وإما في أغراض فلكية بأن تكون مرصداً يرقب منه الكهنة الكواكب التي تكشف عن كل شيء في حياة الناس .

وكان الزاجورات العظيم الذي في برسبا يسمى « مراحل الأفلاك السبعة » ، وكانت كل طبقة من طبقاته مخصصة لكوكب من الكواكب السبعة المعروفة عند البابليين ، وملونة بلون يرمز إلى هذا الكوكب . فكانت الطبقة السفلى سوداء اللون كلون زحل ، والتي تليها بيضاء كلون الزهرة ، والتي فوقها أرجوانية للمشترى ، والرابعة زرقاء لعطارد ، والخامسة قرمزية للمريخ ، والسادسة فضية للقمر ، والسابعة ذهبية للشمس . وكانت هذه الأفلاك والكواكب تشير إلى أيام الأسبوع السبعة مبتدئة من أعلاها (١٤٧) .

ولم يكن في هذه المباني - على قدر ما نستطيع أن نتبين من منظرها - شيء كثير عن الذوق الفني ، فقد كانت كلها كتلا ضخمة من خطوط مستقيمة لا تتناول إلى شيء أكثر من مجد الضخامة ، وقد نجد في بقاع متفرقة بين الخرائب القديمة عقوداً وأقواساً ، وهي أشكال أخذت عن سومر ، واستخدمت في غير عناية ومن غير علم بمصيرها . وكان ما في المباني من زينات في داخلها ونحارجها يكاد يقتصر على طلاء بعض أوجه الآجر ، بعد صقلها ، بالألوان الصفراء ، والزرقاء ، والبيضاء ، والحمراء ، وإقامة صور من القرמיד للحيوان والنبات في مواضع قليلة من الجدران ، وهذا « التزجيج » ، الذي لم يكن يقصد به تجميل البناء فحسب بل كان يقصد به أيضاً وقاية المباني من الشمس والمطر ، قديم يرجع على الأقل إلى عهد نارام - سين وقد ظل شائعاً في أرض النهرين إلى أيام

الفتح الإسلامي . ولهذا السبب أصبحت صناعة الخزف أخص فنون الشرق
الأدنى القديم ، وإن لم تنتج من الأواني الخزفية ما هو جدير بالذكر . لكن
فن العمارة البابلي ظل على الرغم من هذا العون فناً ثقيلاً نحالاً من الجمال
والأناقة ، قضت عليه المواد التي استخدمت فيه ألا يرقى إلى ما فوق الدرجة
الوسطى . وما أسرع ما كانت الهياكل تقوم من الطين الذي حوَّله العمال
المسخرون إلى لبنات وملاط ، ولم تكن ثمة حاجة إلى قرون طوال كي تمتلئ
بها البلاد كما احتاجت المباني الكبيرة الباقية في مصر وفي أوروبا العصور
الوسطى ، ولكنها تهدمت بنفس السرعة التي شيدت بها أو بما يقرب منها ،
ولم يمض عليها إلا خمسون عاماً حتى عادت كما بدأت تراباً (١٤٨) . وكان
رنحص اللبن والآجر في حد ذاته سبباً في فساد الهندسة البابلية . لقد كان
يسهل أن تقام من هذه المواد المباني الضخمة ، أما الجمال فكان من الصعب
أن يُنال باستخدامها . ذلك أن الآجر لا يعين على السمو والجلال ،
والسمو والجلال هما روح العمارة .

الفصل الثامن

علوم البابليين

الرياضة - الفلك - التقويم - الجغرافية - الطب

كان البابليون تجاراً ، ومن أجل هذا كان نجاحهم في العلم أيسر من نجاحهم في الفن . لقد أوجدت التجارة علوم الرياضة ، وتعاونت مع الدين على إيجاد الفلك . وكانت الأعمال المتعددة التي يقوم بها كهنة أرض الجزيرة ، من قضاء بين الناس ، وهيمنة على المصالح الحكومية ؛ وزراعة وصناعة ، وعرافة ونخبرة بالنظر في النجوم وفي أحشاء الحيوانات - كانت الأعمال التي يقوم بها هؤلاء الكهنة حافظاً لهم على أن يضعوا ، على غير علم منهم أسس العلوم التي كانت في أيدي اليونان الملحدون سبباً في إنزال الدين من مركز الزعامة والسيطرة على العالم .

وكانت علوم البابليين الرياضية تستند إلى تقسيم الدائرة إلى ٣٦٠ درجة ، وتقسيم السنة إلى ٣٦٠ يوماً . وعلى هذا الأساس وضعوا نظاماً ستينياً للعد والحساب بالسنين ، وهو النظام الذي نشأت منه فيما بعد النظم الاثنا عشرية ، التي تعد بالاثني عشرات . وكانوا لا يستخدمون في العد إلا ثلاثة أرقام - منها علامة للواحد تتكرر حتى تكون تسع علامات متماثلة الرقم ٩ ، وعلامة ثانية للرقم ١٠ تتكرر حتى تصل إلى ٥٠ ، وعلامة للرقم ١٠٠ ، وكان مما سهل لهم عملية العد والحساب أن وضعوا جداول لا تقتصر على ضرب الأعداد الصحيحة وقسمتها . بل تشمل أيضاً أنصاف الأعداد الرئيسية وأثلثها ومربعاتها ومكعباتها . وتقدم علم الهندسة حتى كان في وسعهم أن يقدروا المساحات المعقدة ومساحات الأشكال غير المنتظمة . وكانوا يقدرون النسبة التقريبية (النسبة بين محيط الدائرة وقطرها) بثلاثة وهو عدد تقريبي لا يلبق بأمة من الفلكيين .

وكان الفلك هو العلم الذي امتاز به البابليون ، وهو الذي اشتهروا به في العالم القديم كله ، وهذا أيضاً كان السحر منشأ العلم فلم يدرس البابليون النجوم ليرسموا الخرائط التي تعين على مسير القوافل والسفن ، بل درسوها أكثر ما درسوها لتعبيهم على التنبؤ بمستقبل الناس ومصائرهم ، وبذلك كانوا منجمين أكثر منهم فلكيين وكان كل كوكب من الكواكب لها تهمه شئون الناس ولا غنى عنه في تدبيرها . فكان المشتري مردك ، وعطارد نابو ، والمريخ نرجال ، والشمس شمش والقمر سن ، وزحل نيب ، والزهرة إشتار . وكانت كل حركة من حركات كل نجم أو كوكب تدل على أن حادثاً وقع على الأرض أو تنبأ بوقوعه . فإذا كان القمر منخفضاً مثلاً ، كان معنى ذلك أن أمة بعيدة ستخضع للملك ، وإذا كان هلالاً كان معناه أن الملك سيظفر بأعدائه . وأوضحت الجهود التي تبذل لاستخلاص العلم بالمستقبل من حركات النجوم شهوة من شهوات البابليين ، واستطاع بها الكهنة الخبيريون بالتنجيم أن يجنوا أطيب الثمرات من الملوك والشعب على السواء . وكان من هؤلاء الكهنة من هو مخلص اعلمه مؤمن به ، ينقب بغيرة وحاسة في المجلدات التي تبحث في التنجيم ، والتي وضعت ، حسب رواياتهم المأثورة ، في عهد سرجون ملك أكد . وكانوا يشكون من الدجالين الذين يسرون بين الناس يقرعون لهم طالعهم أو يتنبئون بما سيكون عليه الجواب بعد عام شأن تقاويمنا في هذه الأيام ، كل هذا نظير أجور يتقاضونها وهم لم يدرسوا من التنجيم شيئاً (١٤٩) .

ونشأ علم الفلك نشأة بطيئة من هذه الأرصاد ومن خرائط النجوم التي كانت تهدف إلى التنجيم والتنبؤ بالغيب ، وقد استطاعوا منذ عام ٢٠٠٠ ق . م أن يسجلوا بالدقة شروق الزهرة وغروبها بالنسبة إلى الشمس ، وحددوا مواضع عد نجوم ، وأخذوا يصورون السماء على مهل (٥٠) . فلما فتح الكاشيون بلاد بابل توقف هذا التقدم نحو ألف عام ، ثم واصلوه من جديد في عهد نبوخذ نصر ، فسور العلماء الكهنة مسارات الشمس والقمر ، ولاحظوا اقترانها كما لاحظوا

الحسوف والكسوف ، وعينوا مسارات الكواكب ، وكانوا أول من ميز
النجوم الثوابت من الكواكب السيارة تمييزاً دقيقاً (١٥١) (*) ، وحددوا تاريخ
الانقلابين الشتائي والصيفي ، وتاريخي الاعتدالين الربيعي والخريفي ، وساروا
على النهج الذي سبقهم إليه السومريون فقسموا دائرة فلك البروج (أي مسار
الأرض حول الشمس) إلى الأبراج الاثني عشر . وبعد أن قسموا الدائرة
إلى ٣٦٠ درجة عادوا فقسموا الدرجة إلى ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين
ثانية (١٥٢) . وكانوا يقدرون الزمن بالساعة المائية والمزولة ، وأكبر الظن
أنهم لم يعملوا على ترقية هاتين الآلتين فحسب بل أنهم اخترعهوهما
اختراعاً (١٥٣) .

وقسموا السنة إلى اثني عشر شهراً قريباً ، منها ستة في كل منها ثلاثون
يوماً والستة الأخرى في كل منها تسعة وعشرون . ولما كان مجموع أيامها
على هذا الحساب لا يبلغ إلا ٣٥٤ يوماً فإنهم كانوا يضيفون في بعض السنين
شهراً آخر لكي يتفق تقويمهم مع الفصول . وقسموا الشهر إلى أربعة أسابيع
تتفق مع أوجه القمر الأربعة . وحاولوا أن يتخذوا لهم تقويمياً أسهل من هذا
بأن قسموا الشهر إلى ستة أسابيع كل منها خمسة أيام ، ولكن ثبت بعدئذ أن
أوجه القمر أقوى أثراً من رغبات الناس ، وبقي التقسيم الأول كما كان .
ولم يكونوا يحسبون اليوم من منتصف الليلة إلى منتصف الليلة التي
تليها ، بل كان عندهم من شروق القمر (**) إلى شروقه التالي (١٥٤) ،
وقسموا هذه المدة إلى اثني عشرة ساعة ، في كل ساعة منها ثلاثون
دقيقة ، وبذلك كان طول الدقيقة البابلية أربعة أضعاف ما قد يوحى إلينا
اسمها . وإذن فتقسيم الشهر عندنا إلى أربعة أسابيع ، وتقسيم أوجه ساعاتنا

(*) كان البابليون يفرقون بين الكواكب والنجم « الثابت » برصد حركات الكواكب
و « تجواله » . ويعرف علم الفلك الحديث الكواكب بأنه جرم سماوي يور بانظام حول الشمس .
(**) هكذا في الأصل ولعل المؤلف يريد من شروق الشمس إلى شروقها ، وذلك لأن
شروق القمر يتأخر في كل ليلة عن سابقها بنحو ٥٢ دقيقة ويجعل طول الساعة مختلفاً في كل
ليلة عنه في الأخرى . (المترجم)

إلى اثنتي عشرة ساعة (لا إلى أربع وعشرين) وتقسيم الساعة إلى ستين دقيقة ،
والدقيقة إلى ستين ثانية ، كل هذه آثار بابلية لا شك فيها باقية من أيامهم
إلى عهدنا الحاضر (*) ، وإن كان لا يخطر لنا على بال .

وكان اعتماد العلوم البابلية على الدين وارتباطها به أقوى أرباباً في ركود
الطب منه في ركود الفلك . على أن أساليب الكهنة الخفية لم تحل دون تقدم
العاوم بقدر ما حال دونه تخريف الشعب . ذلك أن علاج المرضى قبله خرج
إلى حد ما عن اختصاص الكهنة وسيطرتهم من أيام حمورابي ، ونشأت مهنة
منتظمة للأطباء ذات أجور وعقوبات يحددها القانون ، فكان المريض الذي
يستدعى طبيباً لزيارته يعرف مقدماً كم من المال يجب عليه أن يؤديه نظير
هذا العلاج أو ذاك ونظير هذه الجراحة أو تلك ، وإذا كان هذا المريض
من الطبقات الفقيرة نقص الأجر لكي يتناسب مع فقره (١٥٧) . وإذا أخطأ
الطبيب أو أساء العمل كان عليه أن يؤدي للمريض تعويضاً . بل لقد بلغ
الأمر في بعض الحالات التي يكون فيها الخطأ شديماً أن تقطع أصابع الطبيب
كما سبق القول ، حتى لا يمارس صناعته عقب هذا الخطأ مباشرة (١٥٨)

ولكن هذا العلم الذي تحرر من سلطان الدين تحرراً يكاد يكون تاماً كان عاجزاً
بسبب حرص الشعب على التشخيص القائم على الخرافات والأوهام ، وعلى العلاج
بالأساليب السحرية . ومن أجل هذا كان السحرة والعرافون أحب إلى الشعب

(*) وانتقل البابليون من رسم السماء إلى رسم الأرض . وأقدم ما نعرف من الخرائط
هي التي خطط فيها الكهنة طرق إمبراطورية نبوخذ نصر ومدنها (١٥٥) . ولقد عثر المنقبون
في خرائب جاسور (التي تبعد عن بابل مائتي ميل شمالها) على لوح من العلين يرجع تاريخه
إلى عام ١٦٠٠ ق . م ويحتوي ، في مساحة لا تكاد تبلغ بوصة واحدة ، على خريطة لمقاطعة
شط - أزلا ، وقد مثلت فيها الجبال بخطوط دائرية ، والمياه بخطوط مائلة ، والأنهار
بخطوط متوازية . وكتبت عليها أسماء عدد من المدن ، وبين في هامشها اتجاه الشمال
والجنوب (١٥٦) .

من الأطباء ، وقد فرضوا على الناس ، بفضل نفوذهم عندهم ، طرقاً للعلاج أبعد ما تكون عن العقل . فكان منشأ المرض في رأيهم تقمص الشيطان جسم المريض لذنب ارتكبه ، وكان أكثر ما يعالج به لهذا السبب تلاوة العزائم وأعمال السحر والصلوات ، فإذا ما استخدمت العقاقير الطبية ، فإنها لم تكن تستخدم لتطهير جسم المريض ، بل كان استخدامها لإرهاب الشيطان وإخراجه من الجسم . وكان أكثر الأدوية شيوعاً عقاراً مكوناً من خليط من العناصر التي تعافها النفس اختيرت لهذا السبب عن قصد ، ولعلهم كانوا يفترضون أن معدة المريض أقوى من معدة الشيطان الذي يتقمصه . وكانت العناصر المألوفة لديهم هي اللحم النيئ ، ولحم الثعابين ، ونشارة الخشب الممزوجة بالنبيذ والزيت ، أو الطعام الفاسد ، ومسحوق العظام ، أو الشحم والأقذار ، ممزوجة ببول الحيوان أو الإنسان أو برازه (١٥٩) . وفي بعض الحالات كان يستبدل بهذا العلاج بالأقذار لبن وعسل وزبد وأعشاب عطرية يحاولون بها استرضاء الشيطان . فإذا لم يفلح مع المريض كل علاج ، أُحْمِل في بعض الحالات إلى السوق لكي يتمكن جيرانه من أن يشبعوا رغبتهم القديمة فيصفوا له العلاج الفعال الذي لا يخطئ (١٦١) .

على أن من واجبنا أن نقول إن الثمانمائة لوح التي بقيت لدينا لتحدثنا عن طب البابليين لا تحتوي على كل ما كان لديهم منه ، ولعلنا نظلمهم إذا حكمنا عليهم بما نجده فيها وحدها . ذلك أن استعادة الكل الضائع من جزء صغير عثر عليه منه من أشد الناس خطورة في التاريخ ، وليست كتابة التاريخ إلا إعادة الكل من جزئه . وليس بعيد ألا يكون العلاج بالسحر إلا استخداماً لقوة الإيحاء استخداماً ينطوي على كثير من الدقة ، ولعل هذه المركبات الكريمة كان يقصد

بها أن تكون مقيثات . ولعل البابليين حين يقولون إن المرض ينشأ من غزو الشياطين جسم المريض عقاباً له على ما يرتكبه من الذنوب ، لا يقصدون بقولهم هذا شيئاً أبعد من المعقول من قولنا نحن إن المرض ينشأ من غزو البكتريا لجسم المريض بسبب إهماله الإجماعي أو عدم نظافته أو نهمه . وقصارى القول أن من واجبنا ألا نكون واثقين كل الثقة من جهل أسلافنا .

الفصل التاسع

الفلاسفة

الدين والفلسفة - أيوب البابليين - كحيلث البابليين - رجل يقاوم الكهنة

إن الأمم تولد رواقية وتموت أبيقورية ، يقوم الدين إلى جانب مهدها (كما يقول المثل القديم) ، وتصحبها الفلسفة إلى قبرها . ففي بداية الثقافات كلها ترى عقيدة دينية قوية تخفى عن أعين القوم كنه الأشياء وترقق من طبائعهم ، وتثبت في قلوبهم من الشجاعة ما يستطيعون به أن يتحملوا الآلام ويقاسوا الصعاب وهم صابرون ، تقف الآلهة إلى جانبهم في كل خطوة يخطونها ، ولا تتركهم يهلكون إلا حين يهلكون ، وحتى في هذه الحال يحملهم إيمانهم القوى على الاعتقاد بأن خطاياهم هي التي أغضبت الآلهة فانتقموا منهم . ذلك أن ما يصيب الناس من شر لا يفقدهم إيمانهم ، بل يقويه في قلوبهم ، فإذا جاء النصر ، وإذا نسوا الحرب لطول ما ألفوه من الأمن والسلام ، ازدادت ثروتهم ، واستبدلت الطبقات المسيطرة بحياة الجسم حياة الحواس والعقل ، وحلت اللذة والراحة محل الكدح والمتاعب ، وأضعف العلم الدين بينما يضعف التفكير والدعة ما في الناس من رجولة وصبر على المكاره . وأخيراً يبدأ الناس يرتابون في آلهتهم ، ويندبون مأساة المعرفة ، ويلجأون إلى كل لذة عاجلة زائلة يعتصمون بها من سوء مصيرهم . فهم في البداية كأخيل وفي النهاية كأبيقور ، وبعد داود يأتي أيوب ، وبعد أيوب يأتي سفر الجامعة .

وإذ كنا لا نستدل على تفكير البابليين إلا من أيام ملوكهم المتأخرين ، فإن من الطبيعي أن نجد هذا التفكير تسرى فيه حكمة الكلالاة الصادرة من أفواه الفلاسفة المتعبين الذين يستهتعون بالملاذ كما يستمتع بها الإنجليز . فترى على أحد

الألواح مثلاً بلطاً - أرتوا يشكو من أنه التزم أوامر الآلهة أشد مما التزمها جميع الناس - ولكنه مع هذا أصابته طائفة من البلايا ، فقد أبويه ، وخسر ماله ، وحتى القليل الذي بقي له منه سرق في الطريق . ويجيبه أصدقاؤه - كما يجيب أيوب أصدقاؤه - بأن ما حل به من البلاء ليس إلا عقاباً له على خطايا خافية عنه - وربما كان جزاء له على صلفه العاتى المنبعث من طول ههده بالرشاء ، وهو أشد ما يثير غضب الآلهة وحسدها ، ويؤكدون له أن الشر ليس إلا خيراً مقنعاً ، وأنه جزء من السنن الإلهية ينظر إليه المرء نظرة جد ضيقة بعقله الضعيف ، وهو غافل عن هذه السنن في مجموعها ، وأنه إذا ما استمسك بإيمانه وشجاعته فإنه سيجزى في آخر الأمر خيراً الجزاء ؛ وسينال ما هو خير من هذا وهو أن أعداءه سيلقون عقابهم ؛ وينادى بلطاً - أرتوا الآلهة يطلب إليها العون - ثم تختتم القطعة الباقية من اللوح ختاماً مفاجئاً (١٦٢) .

وتعرض قصيدة أخرى وجدت ضمن بقايا مجموعة الآداب البابلية التي خلفها آشور باتيبال هذه المشكلة بعينها عرضاً أدق حين يتحدث تاني - أتول - أنليل ، وهو كما يلوح أحد حكام نپور ، عن نفسه فيقول في وصف ما لاقاه من الصعاب (*) :

(طمس على مقلتي كأنما أغلقهما) بقفل ؛

(ووقر أذني) كأذني الشخص الأصم .

وكنت ملكاً فصرت عبداً ؛

وأساء رفاة (ى) معاملي كأن بي جنة .

ابعث إلى العون ونجني من الوهدة التي احتفرت (لى) . . .

بالنهار حشرات عميقة ، وبالليل بكاء ؛

وطول الشهر - صراخ ؛ وطول العام - شقاء . .

(*) الألفاظ الموضوعية بين قوسين ألفاظ ظنية .

ثم يواصل قوله فيخبرنا كيف كان طول حياته إنساناً تقياً ، وكيف كان آخر شخص في العالم يصح أن يكون مصيره هذا المصير القاسي :

كأني لم أخصص للإله نصيبه على الدوام ؛

ولم أبتهل إلى الآلهة وقت الطعام ،

ولم أعنُ بوجهي وآتي بخراجي ؛

وكأني إنسان لم يكن التضرع والدعاء دائمين على لسانه .

لقد علمت بلدى الاحتفاظ باسم الإله ؛

وعودت شعبي أن يُعظم اسم الإلهة . . .

وكنت أظن أن هذه الأشياء مما يسرّ أى إله ؛

ولما أصابه المرض على الرغم من كل هذا التقى الشكلى ، أخذ يفكر

استحالة الوقوف على تدبير الآلهة وفي تقلبات شئون البشر .

من ذا الذى يدرك إرادة آلهة السماء !

إن تصاريف الإله كلها نغموض - فمن ذا الذى يدركها ؟ . . .

إن من كان بالأمس حياً أصبح اليوم ميتاً ،

وما هى إلا لحظة حتى تتسمة الغموم ، ويتحطم قلبه فجأة ،

فهو يغتنى ويلعب لحظة ؛

وما هى إلا طرفة عين حتى يندب حظه كالمخزون . . .

لقد لفتنى الهم كأنه شبكة ،

تتطلع عيناي ولكنهما لا تبصران . . . ،

وأذناي مفتوحتان ولكنهما لا تسمعان . . . ؛

وقد سقط الدنس على عورتى ،

وهاجم الغدد التى فى أحشائى . . .

وأظلم من الموت جسمى كله . . .

يطاردني المطارد طوال النهار ؛

ولا يترك لي بالليل لحظة أتتنفس فيها . . .

لقد تفككت أطرافى ، فلم تعد تمشى مؤتلفة ،

وأقضى الليل بين أقدارى كما يقضيه الثور ؛

وأختلط ببراى كما يختلط الضأن .

ثم يعود فيجهر بإيمانه كما فعل أيوب فيقول :

ولكنى أرى اليوم الذى تجف فيه دموعى ،

اليوم الذى يدركنى فيه لطف الأرواح الواقية ،

ويومئذ تكون الآلهة رحيمة بي (١٦٣) .

ثم تنقلب الأحوال كلها سعادة وهناءة ، فيظهر أحد الأرواح الطيبة ،

ويشفى تآبى من جميع أمراضه ؛ وتهب عاصمة هوجاء فتطرد شياطين المرضى

كلها من جسمه . ويسبّح بحمد مردك ، ويقرب له القرابين النفسية ،

ويهب بالناس جميعاً ألا يقنطوا من رحمة الآلهة (*) .

وليس بين هذا وبين ما ورد في سفر أيوب إلا خطوة واحدة ، كذلك

نرى في الآداب البابلية أمثلة سابقة لا يمكن الخطأ فيها مما ورد في سفر الجامعة

من الكتاب المقدس . من ذلك ما ورد في ملحمة جلجميش من نصيح الإلهة

سبيتو لهذا البطل بأن يكف عن شوقه إلى الحياة بعد الموت ، وأن يأكل

ويشرب ، ويستمتع على ظهر الأرض :

أى جلجميش : لم هذا الجحى فى جميع الجهات ؟

إن الحياة التى تسعى لها لن تجدها أبداً .

إن الآلهة حين خلقت بنى الإنسان قدّرت الموت على بنى الإنسان ؛

(*) وأكبر الظن أن هذه الأقوال ، التى نجد سوابق مثلها فى الأدب السومرى ، كان

لها أثر فى واضع سفر أيوب (١٦٤) .

واجتفظت بالحياة في أيديها .

أى جلعميش ، املأ بطنك ؛

وكن مرحاً بالنهار وبالليل ؛ . . .

بالنهار وبالليل كن مبتهجاً راضياً !

وطهر ثيابك .

واغسل رأسك ؛ اغتسل بالماء !

وألق بالك إلى الصغير الذى بمسك ييدك ؛

واستمع بالزوجة التى تضمها إلى صدرك (١٦٥) (*) .

ونستمع فى لوحة أخرى إلى نعمة أشد من هذه حزناً تختتم بالكفر

والتجديف . ذلك أن جبارو وهو عند البابليين كألقبيادس عند اليونان ،

يسأل إنساناً يكبره أسئلة ملؤها الشك فيقول :

أيها العاقل الحكيم ، يا صاحب الذكاء ، تأوه من صميم قلبك !

إن قلب الإله بعيد بعد أطباق السماوات الداخلية ،

والحكمة صعبة ، والناس لا يفهمونها .

ويجيبه الشيخ متشائماً تشاؤم عاموس وإشعيا :

استمع ، يا صديقى ، وافهم أفكارى .

إن الناس يمجدون عمل الرجل العظيم الذى يبرع فى القتل ،

ويحقرون الرجل الفقير الذى لم يرتكب ذنباً .

(*) وازن بين هذه الأقوال وبين ما ورد فى الآيات السابعة والثامنة والتاسعة من الإصحاح

التاسع من سفر الجامعة : ٧ - اذهب كل خبزك بفرح ، واشرب خمرك بقلب طيب ، لأن الله

منذ زمان قد رضى عمك . ٨ - لتكن ثيابك فى كل حين بيضاء ولا يعوز رأسك الدهن .

٩ - التذ عيشاً مع المرأة التى أحببتها كل أيام حياة باطك التى أعطاك إياها تحت الشمس ،

كل أيام باطك لأن ذلك نصيبك فى الحياة وفى تعبك الذى تعبته تحت الشمس .

ويبررون أعمال الرجل الآثم الذى يقترف أشنع الأخطاء
ويردون الرجل العادل الذى يسعى لما يريد لله
وهم يسلطون القوى ليغتال طعام الضعيف ؛
ويقوون القوى ؛

ويهلكون الرجل الضعيف ، ويطرده الرجل الغنى .
وينصح جبارو مع هذا أن يفعل ما تريده الآلهة . ولكن جبارو يقطع
صلاته بها وبالكهنة الذين ينصرون على الدوام أكبر الناس ثواء :
لأنهم لم ينقطعوا عن عرض الأكاذيب والأضاليل
يقولون باللفظ الشريف ما كان فى صالح الرجل الغنى .
هل نقصت ثروته ؟ لأنهم يبادرون إلى معونته :

وهم يسيئون معاملة الضعيف كأنه لص ،

وهم يهلكونه فى خلجة عين ، ويطفئونه كما يطفئون اللهب (١٩٦) .

وليس لنا مع ذلك أن نبالغ فى شأن ما نجده عند البابايين من مزاج
سوداوى ، وما من شك فى أن الناس كانوا يصغون فى رضى ومحبة إلى
ما يقوله كهانهم ، ويزدهمون فى الهياكل يطلبون رضاء الآلهة ، لكن الذى
يدهشنا بحق هو طول إيمانهم بدينهم الذى لا يعرض عليهم إلا القليل من
أسباب المواساة والسلوى ؛ وهل ثمة شىء من هذين فى قول الكهنة أن
لا شىء يمكن أن يعرف إلا بالوحى الإلهى ؛ وإن هذا الوحى لا يصل إلى
الناس إلا عن طريقهم هم ؟ ويحدثنا الفصل الأخير من هذا الوحى عن
هبوط الروح الميتة سالحة كانت أو طالحة إلى أرواى الجحيم لتبتشى فيها
أبد الدهر فى ظلام وعذاب مقيم . فلا عجب والحالة هذه إذا انصرف
البابليون للقصف والمرح فى الوقت الذى جئن فيه نبوخذ نصر بعد أن ملك
كل شىء ولم يدرك أى شىء ، وأمسى يرهب كل شىء .

الفصل العاشر

قبرية(*)

تحدثنا الروايات المتواترة كما يحدثنا سفر دانيال - الذي لم تؤيده أية وثيقة معروفة - أن نبوخذ نصر بعد أن حكم زمناً طويلاً ، حالفه فيه النصر والرخاء على الدوام ، وبعد أن جمّل مدينته بما شقه فيها من الطرق وما شاده من القصور ، وبعد أن بنى للآلهة أربعة وخمسين هيكلًا ، بعد أن فعل هذا كله انتابته نوبة غريبة من الجنون ، فظن نفسه حيواناً ومشى على أربع واقفات بالكلا (١٦٧) . ويختفي اسمه أربع سنين كاملة من التاريخ ومن سجلات بابل الحكومية (١٦٨) . ثم يعود فيظهر لحظة قصيرة ثم ينتقل إلى الدار الآخرة في عام ٥٦٢ ق . م

ولا تكاد تمضي على وفاته ثلاثون عاماً حتى تتصدع إمبراطوريته وتتمزق شراً ممزقاً . وحكم بعده نابونيدس وجلس على العرش سبعة عشر عاماً أثر فيها أعمال الحفر على مهام الحكم ، وصرف وقته وجهده في التنقيب عن عاديات سومر وترك مملكته تتداعى (١٦٩) . فاضطربت أحوال الجيش ، وانهمك رجال الأعمال في شؤون المال العليا الدولية ، فانسوا حبهم لبلادهم ، وغفل الناس عن فنون الحرب لاشتغالهم بشؤون التجارة وانغماسهم في الملذات .

واغتصب الكهنة ساطان الملوك شيئاً فشيئاً ، وملأوا خزائهم بالأموال التي أغرت الدول الأجنبية بغزو البلاد وفتحها . ولما أن قف قورش وجيوش الفرس النظامية المدربة على أبواب بابل رضيت الطائفة المعادية للكهنة من البابليين أن تفتح له هذه الأبواب ، ورضيت بسيطرته المستنيرة (١٧٠) .

(*) القبرية العبارة المكتوبة على القبر Epitaph . (المترجم)

وحكم الفرس بابل قرنين من الزمان كانت في خلالها شطراً من أعظم
إمبراطورية عرفها التاريخ حتى ذلك الوقت ، ثم أقبل الإسكندر بجبروته
وافتح المدينة دون أن يجد منها أية مقاومة ، وظل يشرب الخمر في قصر
نيبوخذ نصر حتى مات (١٧١) .

ولم تفد البشرية من الحضارة البابلية ما أفادته من حضارة المصريين ،
ولم يكن فيها من التنوع والعمق ما في حضارة الهند ، كما لم يكن فيها من
الدقة والنضوج ما في حضارة الصين . على أن بابل هي التي أنشأت ذلك
المقصص الساحر الحميل الذي أصبح بفضل براعة اليهود الأدبية الفنية جزءاً
لا يتجزأ من قصص أوروبا الديني . ومن بابل لا من مصر جاء اليونان
الجوالون إلى دويلات مدنها بالقواعد الأساسية لعلوم الرياضة ، والفلك ،
والطب ، والنحو ، وفقه اللغة ، وعلم الآثار ، والتاريخ ، والفلسفة . ومن
دويلات المدن اليونانية انتقلت هذه العلوم إلى رومة ومنها إلى الأوربيين
والأمريكيين ، وليست الأسماء التي وضعها اليونان للمعادن ، وأبراج النجوم ،
والموازين ، والمقاييس ، وللآلات الموسيقية ، ولكثير من العقاقير ، ليست
هذه كلها إلا تراجم لأسمائها البابلية ، بل إنها في بعض الأحيان لا تعدو أن
تكون بديلاً لحروفها من الأحرف البابلية إلى اليونانية (١٧٢) . وبينما استمد
فن العمارة اليونانية أشكاله وإلهامه من مصر وكريت ، فإن العمارة البابلية
هي التي أوحى عن طريق الزجورات بقباب المساجد الإسلامية ، وبالمنازل
والأبراج في العصر الوسيط ، وبطراز المباني المرتدة في أمريكا في هذه
الأيام . وأضحت قوانين حمورابي تراثاً للمجتمعات القديمة كلها
لا يقل في شأنه عما ورثه العالم من رومة من نظام الحكم وأساليبه . ولقد
التقلت حضارة أرض النهرين من مهدها وأضحت عنصراً من التراث
الثقافي للجنس البشري بفضل سلسلة طويلة من الأحداث التاريخية الخطيرة .
فقد فتحت آشور بابل واستحوذت على تراث هذه المدينة القديمة ،

ونشرته في جميع أنحاء إمبراطوريتها الواسعة ؛ وتلا ذلك أسر اليهود الطويل
وما كان للحياة وللأفكار البابلية فيهم من أثر عظيم ، وأعقب هذا وذاك
الفتحان الفارسي واليوناني اللذان فتحا جميع طرق التجارة والمواصلات بين
بابل والمدن الناشئة في أيونيا وآسية الصغرى واليونان ، فتحالم يشهد العالم
من قبل له نظيراً في كماله وحرابته .

إن شيئاً ما لا يضيع من العالم آخر الأمر ، بل إن كل حادثة تترك فيه
أثرها نخالداً إلى أبد الدهر ، خيراً كان ذلك الأثر أو شراً .